في الوحدة والجماعة الوطنية

رجائى عطيه

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الثانية ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

رقم الايداع
١٩٠٤٤ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولي I.S.B.N 977-209-177-1

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
Email: may642003@yahoo.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٢٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت : ٤٨٤٦٦٠٢

تقديم

هذه مقالات كتبتها فى أزمنة مختلفة ، عبر سنوات ، غايتها وحدة النسيج المصرى ، ورعاية الجماعة الوطنية ، تواصلاً مع مبدأ عاشت به مصر عبر العصور :

الدين لله ، والوطن للجميع .

رجائى عطيه

الإسلام واحترام كافة الرسالات (*)

احترام الأديان ، فرع على شجرة أصيلة أقرها القرآن المجيد الذى جعل الإيمان بكل الرسالات أصلا من الأصول الإسلامية .. ففى القرآن الحكيم : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ، آل عمران: ٨٤] .

ولـم يتحدث كتاب من الكتب السماوية عن زكريا ويحيى ومريم والمسيح بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد عنهم فى القرآن الكريم : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا

(*) الجمهورية ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٢ ، ومجلة روز اليوسف اعتبارًا من عدد ٣١/ ٨/ ٢٠٠٢ وتضمنها أيضا كتاب عالمية الإسلام . رجائى عطيه الأهرام للترجمة والنشر، ط ٢٠٠٣ ص ١٩/ ٢١ ، ص ٣٦/ ٣٧/ ص٢٦٣ وما بعدها .

وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٥ ٣٩] .. ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] .. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] .. ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧] .. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ .. [النساء: ١٧١] .. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧، ٢٥٣] ..

يعرف المسلم ، مما يعرفه من القرآن المجيد ، أن الله تعالى قد أيد المسيح عيسى بن مريم منذ الحمل فيه حتى رفعه الله بآيات معجزات هائلات : حمل مريم فيه بغير أب ، وكلامه فى المهد ، وجعله الماء خمرًا فى عرس «قانا الجليل» ، وتصويره الطين على هيئة طير ونفخه فيه فتكون طيرًا بإذن الله ، وابراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى بإذن الله ، وإخباره بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك أحس عيسى منهم الكفر ، ومكروا لصلبه وقتله ومكر الله والله خير الماكرين . ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

وفى القرآن الحكيم : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة] .

لا عداوة بين الإسلام والمسيحية ، فالمسيحية قوامها المحبة والسلام ، والإسلام يحترم كافة الديانات وينبذ كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح .. يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .. وفى الحديث : «كلكم لآدم .. وآدم من تراب .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

يتسامح الناس ، ويتسامح المتدينون ، حين يدركون أن أصلهم واحد ، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة .. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم ، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعًا ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١] .. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ . [الأنعام: ٩٨] .. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد ، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية ، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والاسماح .. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى .. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم] .. غاية الإسلام أن يهدى من لم يهتد ، وهذه الهداية قوامها الإقناع بالحجة والبيان ، بالحكمة والموعظة الحسنة وائتلاف الناس بالحب والرفق والاسماح .. «المؤمن آلف ومألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .. «ما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ، وما خرج من شىء إلا شانه» .. الهداية الإسلامية لا

تفرض بالقسر والإرغام ، وإنما هى دعوة هادية بالمحبة والبيان .. ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء:١٥] .

لا يسعى الإسلام لفرض دين ، ولا يجبر على هداية .. فى خطاب القرآن المجيد لنبى القرآن : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] .. رسول القرآن عليه البلاغ والإرشاد لا الفرض ولا الإجبار .. ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى:٤٨] .. ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .. ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦] .. لا يتعقب الإسلام ولا يطارد أحدًا أو يفرض نفسه عليه .. ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .. ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس] ..

«أيادى الإسلام ممدودة إلى الدنيا بالمحبة والإسماح والسلام .. لا يجزع الإسلام ولا يخشى السلام .. لفظ السلام : «هو تحية الإسلام» .. ولفظ : «الإسلام» ذاته منحوت من مادة «السلام» .. نبى القرآن «رحمة مهداة» ، وهدية من السماء إلى العالمين .. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .. يقول رسول القرآن : «**إن الله جعل السلام تحية لأمننا ، وأمانا لأهل أمتنا**» .. «السلام قبل الكلام] .. « **لا تؤمنوا حتى تحابوا : ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم**» .. السلام والاسماح ، مهجة وروح الإسلام .. تحية الله تعالى

للمؤمنين تحية سلام : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] .. ومستقر الصالحين هى دار الأمن والسلام : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥] .. ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] .. وأهل الجنة الموعودة لا يسمعون لغوا من القول ولا يتحدثون بغير لغة السلام : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة] ..

***

وفى مصر بالذات ، انحفرت أصداء هذه المبادئ السامية فى نسيج المصريين وانطبعت بها حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فلم تعرف فارقًا بين المسلم والمسيحى .

هذه الشجرة الباسقة للتسامح ظلت فروعها ممتدة إلى العصر الحديث .. اتخذ صلاح الدين طبيبا مصريا يهوديًا له هو هبة الله بن جميع ، من مئات السنين ، ولذلك أمثلة حية فى عصرنا الحاضر .. موسى قطاوى باشا ، اليهودى المصرى ، وُلِّىَ وزارة المالية المصرية فى القرن الماضى ، ووُلِّىَ نوبار باشا الأرمنى الأصل (١٨٢٥ ١٨٩٩) رئاسة الوزارة المصرية أكثر من مرة ، ومكرم عبيد الذى حمل عدة حقائب وزارية وملأ الحياة الوطنية ، كان شعلة حية للعطاء بلا فوارق دينية سواء فى مرحلته مع الوفد المصرى ، أم بعد خروجه وتأليفه حزب الكتلة الوفدية .

المزارات المسيحية فى مصر الإسلامية ، مزارات للمسلمين أيضًا .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة بالدقهلية، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسيوط وغيرها ، مزارات

يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون .. هذه الصورة الرائعة للتآخى بين الأديان .. ترى فى المسلمين أسماء نوح وموسى ويعقوب وعيسى وداود وسليمان ويوسف واسحق وهود ويونس وهارون وعمران ومريم وشعيب .. يكثر المسلمون من تسمية أولادهم بهذه الأسماء ، ولا يجدون فى ذلك غضاضة، بل ولا يلتفتون إلى ذلك لأنه صار جزءًا من نسيجهم طبعوا عليه من سماحة الإسلام وتوقيره وإجلاله لكل الأنبياء ولجميع الأديان والرسالات .

*****

الأديان .. الهداية ، أم الأمجاد ؟! (*)

يبدو للمتابع المتأمل ، أن كثيرا من المتدينين ، من هذا الدين أو ذاك ، تمتزج بمشاعرهم أحاسيس الرضا أو الفخر والإعجاب بالأمجاد التى دانت لهم فى الزمن الغابر أو القريب .. ولعل هذا الإعجاب بالأمجاد يزاحم فى صفحة وعيهم وإحساسهم بالدين ذاته وما جاء به من هداية .. يساعد على ذلك امتداد الأمل فى وصل الحاضر بالماضى التليد ، أو اصطناع الأسباب لإسباغ مسوح الدين على مآرب الحاضر فى دنيا الأغراض والمصالح .. يبتعد أهل الأديان ، وحاملو دعواتها ، ابتعادًا سلبيا مؤسفا ، عن جوهر الدين وهدايته ، حين يلفتون أنظار المتدينين عن «هداية» الدين ليشدوهم إلى «أمجاد» غابرة أو حاضرة أو منشودة .. ابتعاد الناس عن «هدايات» الأديان ، والتعلق بالأمجاد ، ليس عيبًا فى الأديان ، ولا نحرًا ولا انتقاصا منها .. الدين هو هو وسيبقى هو هو .. اهتدى إليه الناس أو حادوا عنه . الله سبحانه وتعالى واحد ، لا يتغير ولا يتبدل .. رب اليهود هو رب المسيحيين هو رب المسلمين هو رب الكون والخلق كله والناس أجمعين على اختلاف أديانهم ومللهم ونحلهم ، أو هداهم وضلالهم .. إن الاتجاه إلى الله تعالى لا يتغير لأنه سبحانه واحد أحد ، وإنما الذى يتعدد ويتغير هو اتجاه الآدميين إليه سبحانه ، وجودًا وعدما ، قربا وبعدا ، جدًّا وهزلًا ، فهما وغباءً ، علما

(*) الأهرام ٦/ ٢/ ٢٠٠٤ .

وجهلًا .. وذلك على قدر هداية وعقل وبيئة الآدمى ووسطه وعصره وزمانه ومحيطه .. انشغال بعض أهل وأبناء الديانات عن «هدى» أديانهم ، عيبه فيهم لا فى الأديان .. لم تمض ولم تنتشر «هدايات» الأديان بالحروب والأمجاد ، وإنما تحققت الأمجاد حين اهتدى المتدينون والتزموا بجوهر الدين ، والتفتوا إلى أعمدة الحقيقة للأديان ، وروحها الباقية التى نزلت بها رسالتها من السماء .

المسيحية ، والمجد الحقيقى !:

لم تكن أمجاد المسيحية الحقيقية فى الإمبراطوريات التى أقامتها دول مسيحية لم تكن تغيب عنها الشمس ، ولا فى الحروب الصليبية التى اتشحت بشعار الصليب لتغزو الشرق الإسلامى ، ولا فى موجات الاحتلال الاستعمارى التى أتت من أوربا المسيحية إلى آسيا وأفريقيا فعصفت واستنزفت ، ولا فى تقويض الأندلس الإسلامية ومطاردة المسلمين ، ولا فى محاكم التفتيش ، ولا فى غزو أفغانستان فالعراق !! .. مجد المسيحية الحقيقى فيما نزلت به من هداية ومحبة .. المسيحية نزلت وقد أُهملت شريعة موسى ، وطغت الماديات حتى تحول الهيكل المقدس إلى مشروع ومزار تجارى ، وتفرقت الطوائف إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين وغلاة وسامريين .. جاءت المسيحية لتعيد السواء إلى الخروج عن الناموس وشريعة التوحيد التى جاء بها موسى عليه السلام ، حتى كان المسيح عليه السلام يقول : «لم أرسل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥/ ٢٤) .

جاء المسيح ﷺ ببساطة الضمير.. يدعو إلى ملكوت السماء فى الضمير والوجدان ، لا فى القصور والعروش .. يقول للناس : «لن تربح شيئا إذا كسبت كل شىء وخسرت نفسك ! » .. هداية المسيح لا تبالى بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن الضمير . لم يَدْع المسيح ﷺ إلى استعمار ولا إمبراطوريات ولا إلى تجبر .. مضى فى الناس يدعو ويقول : «طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين فى سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين» .. لم يقل ﷺ طوبى للمستعمرين أو الأغنياء أو المتجبرين .. يحمل إلى البشرية دعوة الهداية والاسماح ويقول لمن تكالبوا على المجدلية : «من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرجمها بحجر!» .. حمل المسيح إلى البشرية شريعة الحب فى مواجهة الجحود والتجبر والرياء .. شريعة الحب لا تبقى شيئا من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقص حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه .. تقول شريعة الحب التى أتى بها المسيح للمزهو المتعالى بنفسه : «لماذا تنظر إلى القذى فى عين أخيك ، ولا تنظر إلى الخشبة التى فى عينيك ؟» لا عنصرية فى المسيحية ، ولا استعلاء لأحد على أحد : «بل الذى يعمل مشيئة الله هو أخى وأختى وأمى» .. «إن الدين بما تعمل لا بما معكم!» .. دعوة المسيحية إلى «ملكوت السماء» لا إلى «مستعمرات» فى الأرض !

ماذا تكسب الدنيا ، بل ماذا تكسب المسيحية والمسيحيون بالانصراف إلى الأمجاد الزائفة عن «الهداية» التى جاء بها السيد المسيح ؟!!!

لم يكن كل المسيحيين معنيين بإقامة الإمبراطوريات والتعلق بأمجادها ، ولا احتلال بقاع الأرض والاستيلاء على ثروات الشعوب ، ولا نصب محاكم التفتيش ، ولا غزو بلاد الله ! بل لقد هب ملايين من المسيحيين البسطاء ، مع مجلس الكنائس العالمي ، ومؤتمر الكنائس الأوربى ، والمجلس الوطنى لكنائس المسيح فى الولايات المتحدة ، ومجلس كنائس الشرق الأوسط للتنديد بغزو العراق ، وخرج يوم ١٦/ ٢/ ٢٠٠٣ عشرات الملايين من أهل الأديان وبحر العاديين من البسطاء فى أوربا والأمريكتين فى مظاهرات حاشدة عمت عواصم العالم ومدنها الكبرى ، وصفت بأنها «مظاهرات القرن» ، فى أكثر من ٦٠٠ مدينة ، للاعتراض بقوة على هذا الغزو ، وعلى «المصالح» الكامنة التى وراءه ، معترضين على نهم المصالح التى تبتعد عن «هدايات» الأديان . مجد المسيح وهدى المسيحية ، عائشان فى قلوب مئات الملايين الذين لم تصرفهم لغة المصالح ومنطق التوسع والأمجاد الزائفة ، عن جوهر دعوة السيد المسيح وما حملته من هداية .

*****

الأديان والغير (*)

يقرأ المسيحى فى إنجيل متى ٥ : ١ .. «موعظة السيد المسيح على الجبل ، ويقرأ فيما يقرأه فى كل سطور الموعظة تعديلات عميقة تنبذ وتخالف ما شطح إليه السابقون » .. سمعتم أنه قيل للأقدمين : لا تخالف قسمك .. أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا أبدا » .. (متى ٥ : ٣٤ ٣٥) «وسمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن . أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بمثله ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الخد الآخر ، ومن أراد محاكمتك ليأخذ ثوبك، فاترك له رداءك أيضا» .. (متى ٥ : ٣٨ ٤٠) .. «وسمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم ، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم ، فتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » (متى ٥ : ٤٣ ٤٥] .. يمضى المسيحى فى قراءة أناجيله فيرى فيما يراه قول السيد المسيح : «لا تدينوا لئلا تدانوا . فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . لماذا تلاحظ الخشبة فى عين أخيك ، ولكنك لا تتنبه إلى الخشبة فى عينك » (متى ٧ : ١ ٣) .

المزارات المسيحية فى مصر الإسلامية ، مزارات للمسلمين أيضًا .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة

(*) الأهرام ١٩/ ٣/ ٢٠٠٤ ، ٢/ ٤/ ٢٠٠٤.

بالدقهلية ، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسيوط وغيرها ، مزارات يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون .. هذه الصورة الرائعة لاحترام الأغيار والتآخى بين الأديان ، أصيلة فى الإسلام .. الغرب الذى يتغنى بالحرية والاخاء ، محال أن يتخذ أحد منه مزارًا إسلاميا يتبرك فيه رعاياه ، بينما أقبل المسلمون بسماحة الإسلام ، على تسمية أولادهم بأسماء أنبياء الأديان والرسالات الأخرى لا يستثنون من ذلك أنبياء بنى إسرائيل .. فى البلدان الإسلامية ترى فى المسلمين أسماء نوح وموسى ويعقوب وعيسى وداوود وسليمان ويوسف واسحق وهود ويونس وهارون وعمران ومريم وشعيب .. يكثر المسلمون من تسمية أولادهم بهذه الأسماء ، ولا يجدون فى ذلك غضاضة ، بل ولا يلتفتون إلى ذلك لأنه صار جزءًا من نسيجهم طبعوا عليه من سماحة الإسلام وتوقيره وإجلاله لكل الأنبياء ولجميع الأديان والرسالات .. فى العقد الذى عقده الرسول ﷺ مع نصارى نجران : «لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليه دنية ولا دم جاهليه ولا يحشرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى الأمّى رسول الله أبدا ، حتى يأتى الله بأمره» .

*****

الأديان وشرنقة الإعتياد (*)

المفارقة الكبرى ، كانت فى معجزات عيسى عليه السلام الغير مسبوقة ، وما لاقاه برغمها من مأساة غير مسبوقة بدورها .. من قبل عيسى ، كانت آية نبوة يحيى ولادته لأبوين شيخين طاعنين ، أما السيد المسيح ، فقد تأيد بمعجزات وخوارق لم يرها الناس من قبل ، حملت فيه مريم بغير أب ، وكلم الناس فى المهد صبيا ، وجعل الماء بأمر الله خمرًا فى عرس «قانا الجليل» ، وصور الطين على هيئة الطير ونفخ فيه فصارت طيرا بإذن الله ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأحيا الموتى بإذن ربه ، وأخبر بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك كله ، ورغمه ، لم تفلح هذه الخوارق والمعجزات والبراهين والآيات ، فى زحزحة اليهود وإخراجهم من «شرنقة» الاعتياد ، وإنما قادهم ما انحرفوا به عن الناموس وشريعة الله ، وما ألفوه وتجمدوا عليه فى هذا الانحراف قادهم إلى أشنع مأساة عرفها تاريخ الإنسانية ، حين تآمروا وتكاتفوا ودفعوا الأحداث دفعًا إلى مأساة الصلب الذى صاحبه أبشع صور القسوة والعنف والتعذيب الذى انتهى بدق وصلب مخلوق حى لم يقارف وزرًا على الصليب حتى الموت ، فيما يؤمن المسيحيون أنه

(*) الأهرام ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٤.

ذات شخص السيد المسيح عليه السلام، بينما يؤمن الإسلام بأنه شُبّه عليهم، وأن الذى تعرض للتعذيب والـدق والصلب شخص شبه لهم فى صورة المسيح [النساء: ١٥٧] يخبر القـرآن المجيد أن عيسى عليه السلام أحس منهم الكفر، وبأنهم مكروا ومكر الله تعالى وهو سبحانه خير الماكرين.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥].

*****

الأديان ، والغير ..
من الذى يعادى السامية ؟! (*)

مهما كان نصيب الدين ، أى دين ، من الانفتاح أو الانغلاق ، من الانتشار أو الانكماش ، من العالمية أو المحدودية فإنه لا يستطيع أن يفترض أن الإيمان به واعتناقه قد عَمَّ أطراف المعمورة وآمن به الناس طُرًّا فلم يشذ عن اعتناقه والتصديق به أحد .. فذلك محال ، يأباه المنطق وأحوال الإنسان ، ويدحضه الواقع الذى يشهد عليه حال العالم وتفرق الناس فيه على أديان مختلفة ، سواء الأديان السماوية والكتابية ، أو غير ذلك من الديانات التى تعود مرجعيتها بغض النظر عن تصديق أهلها إلى حكماء أو فلاسفة أو مصدقات أو أساطير حلت بقدر أو بآخر فى نفوس من الناس اقتنعت بها وصدقتها ومنهم من يتعصب تعصبًا شديدًا فى الإيمان بها !!

هذه الحقيقة الواضحة ، فرضت وتفرض على الدين كل دين أن يفرد فى منظومته أسسا وقواعد وأسلوبا للتعامل مع «الأغيار» الذين لا يدينون به .. فهو لا يستطيع أن يغفل أو يتغافل عن وجود «الغير» الذى لا يعتنقه ولا يؤمن به ، وهو لا يستطيع مهما قوى الدين وذاع وانتشر

(*) الأهرام ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٤.

أمره أن يعطى لهؤلاء «الأغيار» ظهره فذلك محاصرة وخنق للدين نفسه ، وتعقيم لقدرته بل صلاحيته للانتشار ، وتعطيل لقوة وحركة وتفاعل معتنقيه المؤمنين به مع الحياة بمن فيها من الأحياء والذين يسهمون بقدر أو بآخر فى صناعة الحياة وحركة الحضارات وصفحات الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .. على أن موقف الدين أى دين من «الغير» ،له بالضرورة خصوصية قد تقترب أو تختلف عما تراه أو تتخذه باقى الأديان ، وهذه الخصوصية واقع محتوم يستمد حتميته من فلسفة الدين نفسه ، وقيمه ومبادئه وأحكامه .. وهذا كله قد تختلف بل تختلف فيه وبالنسبة له رؤى ومواقف الأديان ، اختلافا يدعو العقلاء إلى التأمل والمراجعة حتى لا تتحول حوارات الأديان إلى صراعات ، وحتى لا تتغول اعتبارات المصالح التى تحكم أبناء الأديان فتؤدى إلى فتح أبواب قد لاتنغلق للتصادم الضار والمدمر بين الأديان !!!

الديانات السماوية جميعا كلمة الله !

لا تحمل الأديان السماوية فى بنيتها الأصلية أسبابًا للصراع ، فلا توجد فى الواقع أسباب للصراع بين عقائد الديانات السماوية لأنها جميعا كلمة الله ، فلا تناقض بينها ؛ ولأن العقائد بذاتها مسألة قلبية وجدانية مختصة بالمعتقد دون سواه ، تتعلق به فلا يقلقلها أو يزعزعها اعتقاد سواه ، ولا هى بذاتها تصارع أو تقاتل معتقدات الآخرين .. ولذلك فإن ما طرأ على «العقائد» دخيلًا فى بعض الأديان على كلمة السماء لم يكن بذاته سببا لتصادم أو صراع أو تقاتل ، فلا تصادمت المسيحية والإسلام فى

شأن عقيدة التوحيد على ما بينهما من اختلاف يجتهد كل طرف فى إبانة صدق رؤيته فيه دون صراع أو تصادم أو قتال ، ولا حدث صراع أو اقتتال بين المسيحية والإسلام من ناحية ، وبين اليهودية من ناحية أخرى ، رغم اتفاق المسيحية والإسلام على أن اليهود عادوا السيد المسيح عليه السلام وتعقبوه بالكيد والنكال والتآمر، ورغم اتفاق الأناجيل المسيحية مع القرآن على مسئولية اليهود عن «الصلب » وإن اختلفتا فى «شخص» المصلوب .. هل هو السيد المسيح بذاته وشخصه كما يؤمن المسيحيون ، أم أنه عليه السلام قد رفع إلى ربه وشبه الأمر على الصالبين فظنوا أنهم يصلبونه بينما صلبوا سواه !! .. فلا تصارعت المسيحية وتقاتلت مع الإسلام فى جزئية شخص المصلوب ، ولا تصارعت وتقاتلت المسيحية والإسلام مع اليهود الذين أجمعت الديانتان على أنهم المسئولون عن هذه المأساة !

*****

الجماعة الوطنية : إلى أين ؟ (*)

من وقت لآخر تدهمنا واقعة مفاجئة أو نعتبرها مفاجئة لأننا فقدنا قدرة «التوقع» بانحسار ملكة التفطن والالتفات ، فتستدعى الواقعة التفاتنا واهتمامنا ، وتستدعى معهما ما يستوجبه الحدث أو الظرف من فحص ومن تدارك غالبا ما يكون سريعا أو متسرعا تحت ضغط الظرف ، حتى إذا ما انحسرت موجته ، عدنا إلى ما كنا فيه أو عليه !!

ويلاحظ المتابع لأحداث أو واقعات الاحتقان الطائفى التى تداعت أو تتداعى من وقت لآخر، أن كلماتنا تسارع إلى المداواة والتطييب والتهدئة والامتصاص .. يحكمها مهما اتسعت رؤيتها أو بحثها ، الرغبة المحمودة فى تجاوز الحدث وعودة المياه إلى مجاريها حفاظا على وحدة النسيج المصرى الذى بلغ أبلغ مظاهر توحده فى ثورة ١٩١٩ ، وفى حرب ١٩٧٣ ، بل وفى نكسة ١٩٦٧ !! تتسع الكلمات وتضيق ، وتغوص وتتسطح ، تفور فى كل مرة ، وتشق طريقها إلى النخبة وإلى الناس فى قنوات التعبير المقروءة والمرئية والمسموعة ، وفى الندوات التى تعقد ، والمؤتمرات التى تقام ، والمناقشات الشعبية أو الحزبية أو البرلمانية التى تثار ، ثم فجأة : تسكت الكلمات ، وتهدأ الضجة وتنطوى مع تباعد الحدث الصفحة التى فتحت ، وتعود القضية التى ألحت

(*) الأهرام ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٥.

كقارعة إلى أضابير المحفوظات وطوايا النسيان إلى أن تصفعنا قارعة جديدة ، تفتح ملف القضية لأيام أو لأسابيع ، سرعان ما تعود بعدها إلى طيها من جديد ، وإيداعها فى مرقدها ككثير من قضايانا الراقدة بعد نقاش ساخن عابر سرعان ما يخمد إلى أن يُستدعيه طارئ جديد !

هذه الظاهـرة فرع فيما يبدو على حالة اللا تحسب أو اللا تفطن أو اللا توقع أو اللاالتفات التى صارت مسلكا عاما يبدو طفحه فى صور عديدة تصادفنا فى الحروب التى لا نلتفت لمواقع غاراتها المتوقعة إلاّ بعد حدوثها ، وفى الاغتيالات التى تسبقنا إلى مرادها ، وفى الحوادث الطارئة التى تتنوع بتنوع ظروف الحياة والناس ، فيطفو العجز والشلل والقصور على ما نواجه أو لا نواجه به هذه الحـوادث الفجائية ، والحرائق، والزلازل ، وإصابات أو حوادث أو انغلاقات الطرق ، أو هطول الأمطار وهبوب العواصف ، أو انفجارات مواسير المياه ، أو الأزمات الصحية المفاجئة ، جاهلين بما ينبغى عمله بسرعة وكفاءة لمواجهة هذه الطوارئ التى لا تخلو منها الحياة .. معظمنا ان لم نكن جميعا ! لا يعرف كيف يجرى التنفس الصناعى ، أو كيف يستخدم طفاية الحريق المركبة بسيارته أو بأرجاء المكتب أو المرفق الذى فيه يعمل ، مثلما لا يعرف كيف يستدعـى المطافـى أو الإسعـاف ، أو كيف يتعامل مع الأزمات القلبية أو الهبوط أو النزيف المفاجئ أو الجروح والإصابات ، أو كيف يتم إخلاء المبانى والأدوار العالية فى حالات الحريق !!

غياب «التوقع» وشيوع «اللا تحسب» ، وحلـول «رد الفعل» «محل الفعل» فيما يداهمنا دون أن نتفطن إليـه أو نعالجـه سلفًا بما نستطيع ، أو

نتدبر وسائل وآليات التعامل معه إذ أفلت زمامه وفجأنا إنما مرده إلى غياب الالتفات الجاد .. هذا الالتفات الذى لا يفارق العقلاء ويبذلون له كل ما يستطيعونه من الشحن والتركيز والعناية والتبصر والفطنة والانتباه ، ويخطو بوعيهم وفكرهم واهتماماتهم خطوات تتجاوز «اللحظة» أو «اليوم» إلى استشراف وتوقع لما هو قابل !

إلى ملكة الالتفات والانتباه ، يرجع كل ما لدى الأفراد والجماعات من حصاد كثير أو قليل ، وإليها ترجع قدرتهم على التعامل مع الطوارئ والمجاهيل ، لأنها وإن كانت فى دنيا الاحتمالات ، إلاّ أن الاحتمالات واردة الحدوث ، وتغدو متيقنة أو مؤكدة الحدوث إذا سبقتها مقدمات تورى بها أو تسلس أو تؤدى أو تقود إليها .. فى هذه الحالة يغدو القعود عن الالتفات نقيصة ، بل جريرة كبرى إذا جاء فيما يمس مصائر الأوطان والشعوب .. على قدر هذه الملكة صعودا وهبوطا على قدر ما يدين للأفراد والجماعات والأمم والحضارات من انجازات فى العلم والاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة ، وعلى قدر ما تأمن به غوائل المفاجآت !

تختلف درجات التفات البشرية بعامة باختلاف العصور والدهور ودرجات النمو التى مرت بها .. تشهد بهذا كتب التاريخ ، ويسرى ذلك على كل فرد وجماعة بالغًا ما بلغ ضيقها أو اتساعها .. ذلك أن الالتفات قرين الاهتمام وتوأمه ، ولذلك تفاوتت الحضارات والجماعات صعودا وهبوطا تبعًا لحجم أو لدرجات الاهتمام والالتفات فيها .. وتستطيع أن تمسك بأثر هبوط ملكة الالتفات على الأفراد والجماعات والشعوب

والأمم حين ترقب مقدار الخفوت الذى تدلى به ظاهرة «الاتكال» على «لطف المقادير»! هذا «الاتكال» الذى بات عادة تورى بخبو الوعى والإرادة وتراكم الغيبوبة التى تنسى الناس فطنتهم والتفاتهم الواجب لحساب عواقب الأمور !

ضمور الفطنة لا يصيب الأفراد والمجتمعات دفعة واحدة ، وإنما يتسلل إليها ويتزايد بالتراكم .. هذه «الفطنة» شىء غير الذكاء الذى يقصد به جانب أو أكثر من جوانب الذهن .. فقد يكون الذكى فطنا وقد لا يكون فطنا على الإطلاق! وهى شىء غير التعليم والتعلم ، فالمدارس والمعاهد توسع المعلومات وقد تنمى الذكاء وعلى أساسهما تمنح الدرجات والشهادات ، ولكن لا شأن لها بالفطنة التى تسلس إلى الانتباه والالتفات .. وحين تضعف هذه «الفطنة» ، سواء كان الضعف فى الفرد أو الجماعة ، فإنها تميل بصاحبها أو بأصحابها إلى استسهال الخديعة مع النفس ومع الغير .. ترى الظاهرة أو الشىء أو العيب ببصرها ، ولكنها لا تراه ببصيرتها ، ولذلك فإن الفطنة الضعيفة أو الخابية لا تدرى ولا تلتفت لدور ووزن الواقع ، ولا إلى أبعاد الخيال والاستقراء فى التنبه للظواهر وقيادة الحياة المشوشة التى تزحف عليها السلبيات كزحف الكثبان الرملية !! .. هذه الفطنة القاصرة أو الخابية : صديقة «اللا توقع» ، وهى التى تندفع بصاحبها أو أصحابها إلى تصديق ما تطلقه الشائعات أو تردده الألسن أو تطالعه الأبصار المتعجلة أو القراءات السطحية .. تنجرف إلى ذلك بغير تمحيص ولا تدقيق ، ودون استيثاق ، تردد الأقاويل وتضخم الشائعات ظانة أن هذا الترديد

والإعادة ولا بأس من الإضافة ! يزيد المرددين والمروجين والمهولين قبولا لدى السامعين ، أو يزيد الإعجاب بسعة إحاطتهم ومعرفتهم بالخبايا وحماسهم لما يلفت إليهم الأنظار ويستجلب الرضا والإعجاب !!

وفيما يبدو ، فإن خلو يقظة البشر من ذلك التركيز والالتفات الواعى لدرجاته قد أنسى الناس حقيقة اليقظة وتركيبها .. فصار كل آدمى يصحو بعد نوم أو غيبوبة صحوا لا يقترن باليقظة التى أعنيها ، وإنما هو صحو أو يقظة والسلام كسائر المستيقظين .. لا يصاحبها تركيز ولا التفات واع ، فتداهمنا الأحداث من حيث لا ندرى ولا نحتسب ، بينما كانت مقدماتها ظاهرة جلية واضحة لو لم نفارق اليقظة الواعية والتفطن والالتفات !

***

على النخبة تقع فى المقام الأول مسئولية بناء «المعقولية» وإثراء ملكة التفطن والالتفات فى المجتمعات ، لأن قدرتهم على الملاحظة والرصد والاستخلاص ، هى التى تنبه العاديين من الغرق فى بحور الأوهام والظنون وسلبيات الاتكال على لطف المقادير ، وتسبر وتلفت النظر إلى تراكم ظواهر لا ينتبه إليها السطحيون أو الغافلون !

لا يستسلم المتفطنون إلى الاتكال على الصفحة الناصعة لاندماج الجماعة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ ، أو فى المناسبات التى تستدعى الزخم القومى للتضام والتضامن فى مواجهة الأخطار والنوازل ، فهناك أيضا من الكثبان الرملية الزاحفة ما يستوجب الالتفات إليه .. جميل أن تتنادى فى الأزمات بالصفحات المشرقة للوحدة الوطنية ، ولكن

المتفطن الملتفت يلحظ ظواهر ينبغى التوقف المبكر عندها لمعرفة أثرها على النسيج الوطنى .. هناك حساسيات بدأت تتنامى على خلاف ما كان سائدا بين المسلمين والأقباط .. لماذا باتت الحساسيات تنفجر لدى أى بادرة مهما تفهت ؟!. من أربعينيات القرن الماضى اقتبس بديع خيرى والريحانى مسرحية «حسن ومرقس وكوهين» عن مسرحية «المقهى الصغير» للكاتب المسرحى تريستان برنار ، وقدماها على المسرح وتسللت إلى الشاشة الفضية بما تحمله من مفارقات كوميدية ساخرة فى تصوير نهم وطمع وشراهة الشخصيات الثلاثة : المسلم والقبطى واليهودى ، والمتبدية فى محاولات الثلاثى الالتفاف على الثروة التى نزلت على عاملهم نجيب الريحانى ثم عادل خيرى فى النص المسرحى ، وحسن فايق فى النص السينمائى .. أيامها من نحو ستين عاما ، وحتى وقت قريب لم يحتقن أحد من المسلمين أو الأقباط أو اليهود وكانوا كُثْر بمصر فى تلك الأيام غضبا لتجسيد شخصية المسلم أو القبطى أو اليهودى هذا التجسيد الكوميدى الساخر !.. بينما بات الاحتقان أسرع إلينا الآن على العمال والبطال ، ولم يقتصر على الشأن الدينى فامتد إلى الفئات والمهن والحرف وأبناء البلدان والقرى .. رأينا ذلك فى غضبة بعض المحامين على تجسيد كاريكاتيرى لشخصية محام فى فيلم «الأفوكاتو» ، ورأينا ما صاحب هذه الزفة من تداخل الأغراض واختلاط الأوراق والتحريض على استثارة المحامين !!.. ورأينا القضية التى رفعها بعض أبناء قرية «خِرْبتها» تضررا فيما قالوا من الفيلم الكوميدى الذى اتخذ من القرية أو من اسمها ميدانا للتناول الكوميدى !

لم يحتقن ولم يغضب أحد من القبط أو من أهل الصعيد لقصة ثم فيلم «البوسطجى» للأستاذ يحيى حقى .. هذه القصة التى جسدت سينمائيًا ، تصور أحداثًا بكوم النحل من أعمال مديرية أسيوط ، فيها ما قد يغضب أهل الصعيد إذا تجاهلوا مقتضيات العمل الأدبى ، وفيها ما قد يغضب المسيحيين إذا ما نظروا للعمل القصصى من منظور دينى ينأى بالقبطى أن يكون محلا لتناول أدبى أو فنى .. فمدار الرواية حول قصة حب بين «جميلة» ابنة المعلم سلامة القبطى الأورثوذكسى ، وبين خليل إبراهيم المدرس البروتستانتى وما أثمرته هفوة اجتبا فيها الشباب جزيته من الفتى والفتاة من مشكلة باتت تهدد حياة الفتاة وتقض مضاجع البوسطجى عباس الذى اطلع على سرهما بفضه الخطابات التى انقطعت وانقطع مع انقطاعها فرصة الفتاة فى النجاة بمداواة أمرها بالزواج الذى تراخى انتظارا لتصريح أو بيان كنسى لاختلاف الملة ! هذه القصة التى عدت من أعظم أعمال يحيى حقى الإبداعية ، وجسدت سينمائيا ، لم تثر فى أوانها وإليالآن ثائرة أحد من القبط أو من أهالى الصعيد ، بينما رأينا الاحتقان الذى ثار على فيلم «بحب السيما» ، وما صاحب ذلك من فورات وقضايا ردها إلى ذاكرتنا أحداث محرم بك التى لا تزال قيد التحقيق لمعرفة أبعاد العمل المسرحى الذى مثل فيما يقال لعرض واحد ، ثم شاء من شاء أو شاءوا بعثه من مرقده وطبعه على أقراص C. D ليشعل نارًا فى حى محرم بك حملت من النذر ما خفق له قلب مصر !

ليس مقصدى أو مرادى هنا أن أحصى وقائع ، وإنما استشهد فقط لأدلل على زحف حساسيات زحفت كالكثبان الرملية دون أن يلتفت إليها أحد ، ناهيك بأن يحللها ويسبر أسبابها ، لغياب أو خفوت ملكة التفطن والانتباه !..

وأغرب من هذا الخفوت أن يستمر الضمور فى الالتفات رغم هذه الملموسات التى لا تخطئها الفطنة .. أن لا نلتفت لماذا صارت الأحداث تتفجر وتلتهب وتتضاخم لتوافه الأمور ؟! ولماذا تتحول كل شائعة إلى حقيقة وإلى نار مشتعلة ؟! ولماذا تخرج الواقعة المحدودة إلى هياج شامل من هنا أو هناك يفارق فى جموحه أساس وجوهر وروح كل من المسيحية والإسلام ؟! لماذا يسارع البعض إلى رد كل خطأ والخطأ وارد إلى انحياز أو تربص دينى ؟! ولماذا تبتعد «فورات» البعض عما هو سائد فعلا من محبة ووئام وحميمية بين القاعدة العريضة من المسلمين والأقباط ؟! وما هى التراكمات إن كانت التى أوجدت هذه الحساسية أو هذا «التربص»؟!

نعم كان النسيج الواحد والاندماج ، هو الملمح الحاضر فى تاريخ الجماعة الوطنية فى مصر ، ولكن ذلك لا يعنى أن النسيج آمن فى كل الأوقات من عوامل السلب الداخلية ، ومن عوامل التحريض الخارجية المقصودة فى معظم الأحوال إن لم يكن فى كل الأحوال !! .. هذه العوامل الخارجية لا تنفى مسئولية الداخل عن اللا تفطن وعن إهمال التربة حتى صارت مرتعا لمن يريد ضرب الوطن وضرب وحدته فى مسلسل لحوح اتصل فيه الحاضر بالماضى مع تغير فى الصور وإن لم تختلف حقيقة المراد !!

نقطة البداية أو الأساس لمواجهة أية مشكلة ، أن نقر أولا بوجودها وأن نلتفت إليها متيقظين متفطنين ، وأن نمعن النظر فيها بصدق وصراحة وإخلاص .. لا يتأتى ذلك مالم نسبر الأعماق لنستكشف سر أو أسباب كل «طفح» عرضى لا يصدر عن طبيعة وجوهر الإسلام والمسيحية ، ولا يتفق مع الحميمية السائدة الظاهرة بين القاعدة العريضة لمسلمى وأقباط مصر .

*****

الجماعة الوطنية
براءة الأديان من أسباب الإحتقان ! (*)

ظواهر الحساسيات التى تسللت عبر سنوات إلى الجماعة الوطنية ، تستوجب وقفة صادقة فاحصة متأملة ، لأن النسيج الوطنى هو قوام الوطن وعماد حاضره ومستقبله ... هذه الوقفة تستوجب فيما تستوجبه أن تمتد أنظارنا وبصائرنا باحثين مفتشين منقبين مدققين ممحصين فى كل شئ ، ما عساه يكون أو لا يكون سببا فى إثارة الحساسيات ، لا نستبعد شيئا أو عاملا أو سببا إلاّ بعد اخضاعه للنظر والتأمل والفحص والدراسة الجادة الصادقة .. هذه الغاية تستحضر بصدقها عناصر وعوامل عديدة يتوجب علينا أن نفتش فيها لنفرز فى النهاية بين «السبب» و«غير السبب» ، وبين «الواقع» و «الوهم» ، وبين «الحقيقة» و«الظن» ،وبين «العام» و«الخاص» ، وبين «الفعلى» و «المفتعل» ، و«الداخلى» و«المستورد» ، و«الصادق » و«المضلل»!!

نقطة البداية التى لا يجوز التحرج عندها ، هى التفتيش والبحث فى «الأديان» ذاتها ، هل هى سبب للحساسية أو الاحتقان أو العداء ؟! إن الأديان خلاف القوانين والفرمانات والأوامر لا تقوم إلاّ على الرضا والاقتناع والإيمان .. القوانين والأوامر والفرمانات قد تُفرض على الناس فَرْضًا بالقسر والإجبار والإرغام ، وقد يُحملون حملا برغم

(*) الأهرام ٥ ، ١١ ، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٨.

إرادتهم وحتم أنوفهم على الانصياع لها ، ولا يعنى الآمر الفارض أن يكون المخاطب الملتزم مقتنعا أو غير مقتنع بالقانون أو الفرمان أو الأمر ، فالغايه هى احترامه وتطبيقه والالتزام به ، لأنه يصب فى نظام ما يحرص عليه ، ولا يعتنى بالحنايا والقلوب والرغاب والقناعات .. ولكن الدين شئ آخر ، بغايةٍ أخرى ، وقوامٍ وفلسفةٍ مغايرة .. الدين فى جوهره داخلى .. داخلى فى علاقة الآدمى مع نفسه ، وفيما يخاطبها وتخاطبه به ، وداخلى فى علاقته بربه عز وجل ، بل هو يكاد يكون داخليا فيما يباشره أبناء الديانات من فروض وصلوات وطقوس ومناسك تعنى أساسًا بالداخل وتفسد غايتها إذا إهتمت فقط بالظاهر وداخلها النفاق والرياء ! عناية الأديان أساسا واتجاهها إلى داخل الإنسان وإيمانه ، أوجبت وستظل توجب قاعدة بدهية هى أن قوام الأديان انتشارا أو انحسارا هو بوصلة الآدمى الداخلية التى تستجيب وتُقْبَل ، أو تنأى وتُعرض ، وقوامها الرضا والاقتناع والإيمان ، وتأبى بطبيعتها القسر والإجبار والإرغام !

هذه الحقيقة تفوت الكثيرين حين يتوقفون أو لا يتوقفون عند عهد الحديبية الذى عقده رسولا لقرآن ﷺ ، مع قريش ومن والاها ، وارتضى فيما ارتضاه فيه ، أن يرد إلى قريش من يأتيه منها مسلما ، وألا ترد إليه قريش من يذهب إليها مرتدًا عن الإسلام !.. يومها عاجلت عمر بن الخطاب حميته ، وأثاره ما ظنه عدم سواء فى الميزان : أن يرد المسلمون إلى قريش من يأتيهم منها مسلما ، بينما لا ترد قريش من يذهب إليها مرتدا عن الإسلام ! وفات عمر فى حميته أو ثورته مثلما لا يزال

يفوت كثيرين ، أن لب الموقف النبوي يصدر عن حقيقة لا تفوت ، هى أن الأديان لا تنتشر إن انتشرت إلا بالرضا والاقتناع ، ولا تفرض بالقسر والإجبار والإرغام ! وأنه لا حاجة من ثم للإسلام والمسلمين ، ولا لأى دين آخر ، بمن يفارق دينه ويرتد عنه إلى دينٍ سواه ، لأن الأديان لا تضم صفوفا شكلية مظهرية ، وإنما هى تجمع أفئدة مصدقة مؤمنة آلفها هذا الاعتقاد الذى أقبلت عليه طواعية مختارة .. وفى المقابل ، لم تكن قريش حكيمة حين شرطت أن يرد إليها المسلمون من يذهب إليهم مسلما .. فاتها أن من أسلم منها وذهب إلى المسلمين ، أسلم عن عقيدة واقتناع ، وأن رده إليها لن يخرجه عن دينه الذى به آمن ، وأنه من ثم خطر على قريش ومآربها إن صُدَّ عن المدينة وأُجْبر على البقاء بينها بمكة ، وخطرٌ عليها أيضا إن هرب منها واضطر إزاء التزام المسلمين بعهدهم لأن يتخذ مكمنا كما فعل «أبو بصير» وجماعته الذين عسكروا على ساحل البحر الأحمر ، وهددوا من مكمنهم قوافل قريش إلى الشام ، حتى أفاقت قريش إلى خطأ ما اشترطته وفاتها فيه أنه لا جدوى لها ولا أمل فيمن تركها واعتنق الإسلام ، فعادت تطلب بنفسها إلى رسول القرآن r نقض ما شارطته عليه فى عهد الحديبية من ردَّه على قريش من يأتيه مسلما منها !

الأديان السماوية نزلت لإيمان الناس ، لا لتجييش الجيوش وصناعة الأمجاد .. لا يوجد فى الإسلام مثلما لا يوجد فى المسيحية ما يدعو لمعاداة الآخرين .. طلب الأمجاد صناعة آدمية ، واختلاق العداوات انهيارات آدمية !!.. البحث والتنقيب فى كل من الإسلام والمسيحية يؤكد براءة الأديان من أى أسباب للاحتقان .. لم يصطدم أحد أو يحتقن أحد من

هنا أو هناك لاختلاف المعتقد المسيحى الذى يرى أن «شخص» السيد المسيح هو الذى صلبه اليهود ، عن المعتقد الإسلامى الذى يؤمن بأنه «شبيه» له وليس شخص السيد المسيح الذى رفعه الله إليه ، وكتبت الكتب عبر أجيال عن عقيدة التوحيد الإسلامية ، وعن عقيدة التثليث المسيحية ، دون أن يخلق هذا سببا للاصطدام أو الاحتقان ، لأن المعقول الذى تتفق عليه كل العقول ، أن كلاً وراء عقيدته التى يؤمن بها ولا يرتضى لها بديلا .. يصدق هذا على المسلم وعلى المسيحى وعلى اليهودى وعلى غيرهم من أتباع الديانات والمذاهب والملل والنحل بغير استثناء !

على أن الأديان بعامة ، لا يقتصر خطابها على بنيها أو المدعوين إلى دخول باحتها ، ذلك أنه مهما كان نصيب الدين أى دين من الانفتاح أو أو الانغلاق ، من الانتشار أو الانكماش ، فإنه لا يمكن أن يفترض أنه دين الناس جميعا .. فذلك محال يأباه المنطق وينفيه الواقع الحاصل المشاهد الذى يورى أن المعمورة قد تفرق ساكنوها على أديان مختلفة ، سماوية كتابية ، أو غيرها من الملل والنحل والمذاهب !

هذا الواقع فرض ويفرض على كل دين ، أن يفرد فى منظومته أسسا وقواعد وأسلوبا للتعامل مع الأغيار الذين يدينون بدين آخر أو بملة أخرى .. هذا الموقف له خصوصيته فى كل دين .. قد تقترب أو تختلف عن رؤية غيره من الأديان .. وهو الباب الذى يحدد لغة التعامل لأبناء الديانة مع غيرهم تسامحا أو ضيقا ، سلاما أو عداوة ، قربا أو ابتعادا ، تعاملًا أو إنغلاقًا ومجافاة !!

على أن الشواهد تورى بأن ما يدخل «لغة التعامل» مرده فى الواقع ملصقات الناس التى تتراكم مع الأيام ، وما تفرزه المصالح والأهواء ، وليس مرده إلى الأديان الكتابية كما نزلت من السماء .. فهى لا تحمل فى بنيتها الأصلية شيئا من أسباب الصراع .. يصدق هذا حتى على اليهودية ولذلك حديث آخر سبق أن تناولناه بالأهرام (٢/٢٧ ، ٥ ، ١٢ ، ١٩/٣/٢٠٠٤) ، أما الإسلام والمسيحية فليس يوجد فى بنية أى منهما ، ولا ملصقات الزمن والناس ، ما يرتب الحساسية أو البغض أو العداوة ، بل ان الباحث المدقق فى كل من المسيحية والإسلام ليجد مدوناتهما عامرة بالمحبة والإسماح والسلام .. لا تضيق بالأغيار أو تتنكر لهم أو تمقتهم أو تعاديهم ..

***

من المشاهد الحاضرة فى القرآن المجيد الاحترام العميق لكافة الرسل والأنبياء ، بل وجعل من الإيمان بكافة الرسالات السابقة أصلا من الأصول الاسلامية ، وجزءًا لا يتجزأ من الإيمان بالاسلام .. يقول عز من قائل : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة] .. ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

احتفال القرآن المجيد بكافة الرسل والأنبياء ، وعده الإيمان برسالاتهم أصلا من الأصول الإسلامية ، اقترن بتوقيرهم وتكريمهم أبلغ تكريم

فى آيات الذكر الحكيم .. يقرأ المسلم فى القرآن قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ١٣] .. يصافح قارئ القرآن ما أسبغه رب العالمين على هؤلاء الأنبياء من كريم الصفات والشمائل والسجايا ، وأعطر ما بثه إليهم من التحيات .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات] .. وعن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة] .. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء] .. يصفه رب العزة بأنه الحليم الأواه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود] ، وبأنه كان صديقًا نبيًّا ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم] .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات] .. تتوالى هذه النفحات المعطرة بالقرآن لجميع الرسل والأنبياء .. ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم] .. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء] .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات] .. ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام] .. ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص] .. ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصافات] .. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصافات] .. ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص] .. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] .. ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١] .

يعرف المسلم مما يقرأه فى القرآن المجيد ، أنه احتفى بالسيد المسيح عليه السلام ، وبأمه مريم العذراء .. ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] .. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] ..

أجل ، يوجد اختلاف بين الإسلام والمسيحية فى طبيعة السيد المسيح ، أورد فيه القرآن المجيد بيانه، بيد أن هذا البيان لا ينعى شيئا البته على السيد المسيح ، بل ويورد القرآن الحكيم عما قاله عليه السلام لبنى إسرائيل : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢] .. المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، والبيان القرآنى حافل بآيات تنزيه وكرامة المسيح عليه السلام وتأييده بالبينات والإنجيل المنزل وروح القدس .. ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧] .. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧] .. هذه المنزلة الرفيعة التى أسبغها القرآن المجيد على السيد المسيح ، ارتفعت به أن يناله ما ينال الناس، أو يحيق به ما يحيق بهم ، وهو فى حصن الله عز وجل وتحت جناحه : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا

كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران] .. علمه ربه سبحانه وتعالى الكتاب والحكمة ، وأيده بالمعجزات المصدقة لرسالته : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

هذا الاحتفال بالأنبياء عمومًا ، وبالسيد المسيح عليه السلام ، محفور فى وجدان المسلم ، يستقيه ويتشربه من آيات القرآن الحكيم ، الذى سميت بعض سوره بأسماء السابقين على الإسلام من الرسل والأنبياء وآلهم .. سورة آل عمران ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومريم ، والأنبياء ، يس ، نوح .. يتبرك المسلمون بتسمية أولادهم بهذه الأسماء ، وبأسماء موسى وعيسى ويعقوب وإسحق وأيوب وهود وصالح وهارون وشعيب وزكريا ويحيى وغيرهم من الرسل والقديسين .. ويتعلم المسلم من قرآنه المجيد أن الأسرة الإنسانية تنتمى إلى أصل واحد ، لا فرق فيه بين أحد وآخر إلاّ بتقوى الله عز وجل .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .. مرد الخلق إلى نفس واحدة .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١] .. وفى سورة الأعراف : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .. وفى سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٨] .

***

هذا التوقير القرآنى للرسل والأنبياء ، ولرسالاتهم ، واكبه ما روى عن رسول القرآن ﷺ ، فى سياق منظومة كاملة لا تعادى الآخر أو تزدريه .. لم يدع عليه السلام إلى سبيل ربه إلاّ بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يجادل إلاّ بالتى هى أحسن ، ولم يلو أحدًا أو يكرهه على دين ، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولم يلاحق من يعرض عن الهداية والدعوة إلى سبيل الله .. ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] .. فالهدى هدى الله ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨] .. والمسلمون لا يتعاونون إلاّ على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان ..

هذا كله وغيره يصب فى عقيدة المسلم وحناياه سماحة وإقبالًا خالصا .. هذا الإقبال ينطوى على المزيد من الإخاء للنصارى من واقع ما علمّه ويعلمه المسلم من القرآن الحكيم .. قد لاقى نبى القرآن ﷺ والمسلمون الأوائل عداءً وكيدًا من يهود بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير ، ولكنهم لاقوا مودة ورحمة من المسيحية والمسيحيين ومن نجاشى الحبشة المسيحى .. حدث القرآن المجيد فقال عن ذلك : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة] .. العبرة فى

هذه الآية ككل آية هى بعموم النص لا بخصوص السبب .. فى المنظومة المحمدية : المسلم آلف ومألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف .. فى الحديث النبوى أن السلام قبل الكلام .. وفيه : «ولا تؤمنوا حتى تحابوا : ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشو السلام بينكم» .. هذه الدوحة الإسلامية اتسعت ولا تزال متسعة لأهل الأديان ، وللنصارى على وجه الخصوص .. فى القرآن المجيد : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة:٥] .. فى رسالة رسول القرآن ﷺ إلى عامله فى اليمن : «**من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتتن عنها**» ، والذميون فى الحديث النبوى : «**لهم مالنا وعليهم ما علينا**» .. «**من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**» ..

طبيعى أن يكون إيمان المسلم بإسلامه لا بسواه ، وأن تكون عقيدة المسيحى فى مسيحيته لا سواها .. ولكن المؤكد أنه لا يوجد فى المدونات الإسلامية ، قرآنا وسنة ، ما يحمل عداوة أو بغضاء أو كراهية للمسيحى ، أو سببا للاحتقان ، وهو الدين الذى قال قرآنه عن النصارى إنهم أقرب أهل الأديان إخاء ومودة للمسلمين ، فهل يوجد فى المدونات المسيحية المقدسة ما يناقض هذا ؟

***

عبء المسلم فى مصر فى التعرف على المدونات المسيحية ، أعرض كثيرًا من عبء المسيحى فى التعرف على المدونات الإسلامية ، فالقرآن الكريم يتلى بالإذاعات المرئية والمسموعة آناء الليل وأطراف النهار، ويتلى فى التعازى والمناسبات ، وتلتقطه أذن المسيحى بترتيله الجميل

قصدًا أو عفوًا ، فليس غريبا ولا نادرًا أن تجد بين المسيحيين من ينصتون إلى القرآن ويعجبون بكلامه ومعانيه ومعماره وموسيقاه وجمال ترتيله ، ولا يخلو هذا الإنصات من إلمام ما بما فى ذلك الكتاب المجيد ، بينما مدونات المسيحية لا تتلى غالبا إلاّ فى الكنائس ، فى الصلوات والتعميد والزواج وفى العزاء والتأبين ومراسم الجنازات ، وقد تتخللها تلاوة باللغة القبطية التى لم يعد يلم بها إلاّ القساوسة ورجال الدين المتخصصون ، ومن هنا كان إطلال المسلم على ما ورد بالعهد الجديد إطلالًا محدودا أو يكاد ، يتعامل معه المسلم على الجملة تعاملًا لا يخلو من قلة المعرفة وضمور الإلمام بما فيه .. لست أعنى قراءة المسلم للأناجيل ليكون مسيحيًا ، ولا قراءة المسيحى للقرآن ليكون مسلمًا ، فقد اتفقنا على أن اعتناق الأديان حديث داخلى ، قوامه الرضا والاقتناع ، وإنما أتحدث عن الإلمام بالقدر الذى به يعرف كل من المسلم والمسيحى هل فى مدونات الدين الآخر ما يحمل أسبابا للكراهية أو المقت أو العداء أو الحساسية أو الاحتقان؟

طفنا بالمقال السابق بنذر يسير مما ورد بالقرآن الكريم ممجدًا الأنبياء والرسل بعامة ، وللسيد المسيح وأمه البتول بخاصة ، وإيمائه إلى انتماء البشرية إلى أصل واحد ، بل ونفس واحدة ، وإلى دوحة العدل والمساواة والتسامح التى تملأ حنايا المسلم إحساسا بالأسرة الإنسانية وتفاعلًا وتعاملًا طيبًا معها، ولست أبالغ ولا أسبق إلى نتائج حين أبادر بتقرير أن المدونات المسيحية أصدق ما يصدق عليها أنها شريعة المحبة والسلام والوئام .. يعرف ذلك من اتسع وقته واتسعت سماحته من المسلمين للإطلال على ما ورد بها .. لا تعارض بين ذلك وبين إخلاص

المسلم لإسلامه ، بل هو فى النهاية تعميق للفهم ، وقشع للانغلاق المورد إلى التعصب ، وإدراك للأخوة بين الأديان التى تنتمى فى الأصل إلى شجرة واحدة ونبع واحد .

أجل ، يوجد اختلاف بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية فى «شخص» المصلوب وفى طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، ولكنه اختلاف عقائد مآلها إلى داخل الإنسان وعلاقته بربه لا بتعاملاته مع الناس .. العلاقة والمعاملة بين أهل الأديان أمر آخر خلاف محتوى العقيدة .. المسيحية لها تحفظاتها الهائلة على ما فعله اليهود مع السيد المسيح عليه السلام ، ولكنها لا تتخذ موقفا معاديا من الأديان ، ولم تور مدوناتها بما يمكن أن يكون تكئة أو ذريعة لمعاداة الإسلام الذى نزل بعد ميلاد السيد المسيح بنحو سبعة قرون .. حين ينظر المسلم فى منظومة المعاملات المسيحية يجد دوحة مليئة بأغصان المحبة وحبال الوداد ، وروح المؤاخاة ..

نزلت المسيحية ، وقد أهملت شريعة موسى ، وتحول الهيكل إلى مزار تجارى ، وطغت الماديات وتفرقت الطوائف إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين وسامريين ، فكان مجد المسيحية الحقيقى ما نزلت به من هداية ومحبة ، تتغيا إعادة السواء إزاء الخروج على الناموس وشريعة التوحيد التى جاء بها موسى عليه السلام ، فجاء المسيح ببساطة الضمير .. يدعو إلى ملكوت السماء فى الضمير والوجدان ، لا فى القصور والعروش .. يقول للناس : «لن تربح شيئًا إذا كسبت كل شىء وخسرت نفسك» .. لا تبالى هداية المسيح بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن ضميره .. مجده الحقيقى هذه الدعوة الهادية إلى نقاء السريرة ، وإشاعة المحبة ..

من على الجبل يلقى موعظته إلى جموع الناس فيقول لهم : «طوبى للمساكين بالروح ، فإن لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى ، فإنهم سيعزون . طوبى للودعاء ، فإنهم سيرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، فإنهم سيشبعون . طوبى للرحماء ، فإنهم سيرحمون . طوبى لأنقياء القلب ، فإنهم سيرون الله . طوبى لصانعى السلام ، فإنهم سيدعون «أبناء الله» . طوبى للمضطهدين من أجل البر ، فإن لهم ملكوت السماوات . طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم ، وقالوا فيكم من أجلى كل سوء كاذبين . افرحوا وتهللوا ، فإن مكافأتكم فى السماوات عظيمة . فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم! (متى ٥ : ١٢٣) .

دعوة السيد المسيح عارضت العنصرية ، وحذفت شرط «القرابة» التى شرطها العهد القديم للوصايا العشر .. كانت الوصايا مقرونة فى العهد القديم بحق «القريب» على قريبه ، فأطلقها السيد المسيح من هذا المنظور العنصرى .. حين سئل ﷺ عن العمل الصالح قال لسائله : «أنت تعرف الوصايا . لاتزن . لا تقتل . لا تقتل . لا تشهد الزور . أكرم أباك وأمك) [لوقا ١٨ : ١٨ ٢٠ ، مرقص ١٠ : ١٩ ، متى ١٩ : ١٨ ، ١٩] .. ولم يقل لسائله لا تشهد على قريبك أو لا تسرق قريبك ، وكل ما قاله عن القريب وصيته : «أحب قريبك كنفسك» ،على غرار حب لأخيك ما تحب لنفسك .. فلم تربط المسيحية الوصايا ذلك الربط العرقى الذى كان قبلها بالقرابات !

لم يقل ﷺ طوبى للأغنياء أو المتجبرين أو الطغاة .. حمل إلى البشرية دعوة الهداية والإسماح ، يقول لمن تكالبوا على المتهمة بالخطية : «من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرجمها بحجر ! » .. حمل إلى البشرية شريعة الحب فى مواجهة العتو والجحود والتجبر والرياء .. تقول شريعة الحب التى أتى بها المسيح للمزهو المتعالى بنفسه : «لماذا تنظر إلى القشة فى عين أخيك ، ولا تنظر إلى الخشبة الكبيرة فى عينك ؟) (متى ٧ : ٣) .. «سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن . أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بمثله ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الخد الآخر» . (متى ٥ : ٣٨ ، ٣٩) .. «احذروا من أن تعملوا بركم أمام الناس بقصد أن ينظروا إليكم ! .. فإذا تصدقت على أحد فلا تنفخ أمامك فى البوق كما يفعل المراءون فى المجامع والشوارع ليمدحهم الناس ! .. فعندما تتصدق على أحد ، فلا تدع يدك اليسرى تعرف ما تفعله اليمنى ، لتكون صدقتك فى الخفاء) . (متى ٦ : ١ ٤) .. «لا يمكن لأحد أن يكون عبدا لسيدين : لأنه إما أن يبغض أحدهما فيحب الآخر ، وإما أن يلزم أحدهما فيهجر الآخر . لا يمكنكم أن تكونوا عبيدا لله والمال معًا !) (متى ٦ : ٢٤) .

مثلما يقرأ المسلم فى القرآن المجيد ، قول الحق جل وعلا : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٢٤] ، فإن المسيحى يقرأ من موعظة السيد المسيح على الجبل : «سمعتم أنه قيل للأقدمين : لا تخالف قسمك .. أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا أبدًا » (متى ٥ : ٣٤ ، ٣٥) .. «وسمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . أما

أنا فأقول لكم : أحبو أعداءكم ، وباركوا لاعينكم ، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم» (متى ٥ : ٤٣ ٤٥) .. يمضى المسيحى فى قراءة الأناجيل فيرى فيما يراه قول السيد المسيح : «لا تدينوا لئلا تدانوا . فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » (متى ٧ : ١ ٣) .. هذه الباحة الإنسانية الفياضة المعطرة بالمحبة والود والتسامح والإخاء ، تقيم جسور المودة بين المسيحى وبين غيره من أبناء الديانات .. هذه المودة التى تحدث عنها القرآن المجيد ، وبذلها النجاشى ونصارى الحبشة للمسلمين ، حتى حزن نبى القرآن ﷺ حزنا شديدا حينما بلغته وفاة النجاشى عرفانا بما قدمه للمهاجرين من كرم الضيافة وصدق المودة وعطر المحبات ..لا يوجد بمدونات المسيحية ، لا فى الأناجيل ، ولا فى الرسائل الملحقة بالعهد الجديد ، ما يورى بعداوة مضمرة للأغيار ، ولا حض على كراهة أو مقت أو عداء .. العداوات صناعة آدمية ، أما الأديان والمدونات المقدسة فتفيض بعطر المحبة والمؤاخاه .. إنكار الذات هو فضيلة الفضائل المتبدية فى التعاليم المسيحية ، وإخلاص المحبة هو حبل الوداد الذى يربط بين المسيحى والناس .. فى كل مناسبة كان المسيح ﷺ يحذر تلاميذه من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة : وهى فتنة التنافس على الرئاسة والصدارة .. فعلمهم أن الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلا فذا لاتقاء غواية الرئاسة حين جمعهم فى محفل وجعل يغسل أقدامهم بيديه الكريمتين ..

يومها نفر الحوارى سمعان بطرس واستهول أن يغسل المسيح قدميه ، ولم يذعن راضيًا إلاّ حين فهم العبرة التى أراد المسيح أن يلقنها إياهم» (يوحنا ٣ : ٤ ١٧) .. يوصيهم ﷺ فيقول لهم : «وأى بيت دخلتموه فألقوا السلام عليه .. وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها وانفضوا غبارها عن أقدامكم » (متى ١٠ : ١٢ـ ١٤ ، لوقا ٩ : ٥ ، لوقا ١٠ : ١٠ ، ١١) .

إن المرء يدين بالمسيحية أولا يدين بها ، لا يمسك عليها نافذة أو كوة ولا شاردة ولا واردة لبث الكراهية أو العداوة أو الاحتقان ، ويلمس فيها كما يلمس فى الإسلام ما تودعه النفوس من القيم السامية مجدولة بنقاء الضمير وفيوض الإخاء والإسماح والمحبة ! فمن أى باب إذن يأتى الاحتقان ؟! هذا حقيقةً هو السؤال ؟!!

*****

الجماعة الوطنية :
الأفق الآدمى ، بين الضيق والاتساع ! (*)

قد رأينا بطوافنا السريع فى مدونات الأديان ، أن الإسلام والمسيحية بريئان من أى أسباب للحساسية أو التباغض أو العداوة أو الاحتقان .. كلاهما ولا نتحدث عن العقيدة دوحة وارفة للمحبة والسلام والإخاء .. على هذا عاشت الجماعة الوطنية المصرية رغم غيوم عارضة هبت لظرف أو لآخر سرعان ما انقشعت .. فى طفولتنا وصبانا ، لا زلت أذكر ويذكر جيلنا ، أننا فى تداوينا لم نكن نفرق فى الاختيار بين طبيب قبطى وطبيب مسلم ، ولا كان يستوقفنا فى قضايانا أن يكون المحامى مسلما أو قبطيا ، كان الدين حاضرا فى العقيدة والعبادة والطقوس ، ولكن لم يؤثر سلبًا على المعاملات التى لم تفرق بين مسلم ومسيحى إلاّ فيما يفترق فيه وبه البشر من مزايا أو عيوب تقرب هذا أو تبعد ذاك فى دائرة الاختيار .. فلم يكن البعد الدينى واردًا على الإطلاق فى اختيارات الناس لأرباب المهن والحرف والمتاجر وغيرها .. هذه السجية التى عشنا بها زمنا طويلًا ، قد بدأت تنسحب أو تكاد .. هذا الانسحاب أو التراجع علامة تستوقف النظر !

اتفاق الناس محال ، واختلافهم واقع مشاهد لا مفر منه .. فى القرآن المجيد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

(*) الأهرام ٢/ ٢/ ٢٠٠٦.

[هود] .. فلا غرابة فى اختلاف الناس .. منذ بداية الخلق والناس يختلفون ويتمايزون فى كل شىء .. يوجد المؤمن والملحد ، واليمينى واليسارى ، والعادل والظالم ، والرحيم والقاسى ، والمقتصد والمبذر ، والكريم والمقتر ، والسوى والشارد .. هذه النماذج الآدمية وغيرها قد دخلت إلى باحة الأديان جميعها ، الكتابية وغير الكتابية .. يحمل كل منها ما معه من صفات وقدرات ومواهب وملكات . فيهم العالم والجاهل ، والمثقف والضحل ، والذكى والبليد ، والموهوب والعاطل من الموهبة ، وفيهم أيضا الغنى الفقير ، والنسيب واللقيط .. كل ذلك واقع مشهود غير مستغرب ، ولكن اللافت أن تجد بين هذا الخليط : المتسامح والمتشدد ، المتفتح والمتعصب ، المعتدل والمتطرف ، فما هى البوصلة التى تميل بالناس إلى السواء والقصد والاعتدال ، أو تشدهم إلى الشطط والتطرف والتعصب والجموح ؟!

لا شك أن العقل والعلم والثقافة والمعرفة ، تصب فى صالح الاعتدال ، ولكنا نرى عاطلين من هذه المزايا ، ومع ذلك يتسمون بالقصد والاعتدال ، بينما قد نرى من أهل العلم والمعرفة من يجمح إلى التطرف والتعصب ، ويكون تعصبه أو تطرفه أخطر ، لأنه يملك ما يستطيع به أن يخدّم على ما يريد !

يبدو لى أن مساحة «أفق «الآدمى ضيقًا أو اتساعًا هى العنصر الفاعل فى رؤيته وموقفه ، هذا الأفق محصلة عناصر عديدة ، يدخل فيها العقل والعلم والثقافة والمعرفة ، ويدخل فيها أيضًا النسيج الشخصى والبيئة والتجربة والظروف الاقتصادية والمعيشية ، والتركيبة النفسية والعصبية ..

فى «أفق» الآدمى تصب كل هذه العوامل فتشكله ، وعليها تتحدد مساحة الأفق الفردى والجمعى عراضةً وعمقًا ، أو ضيقًا وضحالةً .. ولأن المكونات متعددة ومختلفة ومتنوعة ، لذلك فإن «سعة الأفق «قد تأتى لغير العالم من واقع تكوينه وتجربته ، فيمتلك سعة وسماحة النظر ورغبة الرؤية ونعمة الفهم الذى لا يعز على من يفكر بصدق وسماحة وإخلاص !

سعة الأفق سجية مانحة للقدرة على رؤية كل الألوان والأطياف والتضاعيف ، وباب رحب للنظر العريض ، وصمام واق من الانغلاق والتطرف والتعصب والجموح والشرود .. واسع الأفق لا يبادر مندفعًا منغلقًا إلى رأى أو اتجاه ، وإنما يفتش وينقب ويبحث ويتأمل ويوازن ، وربما تردد كثيرًا أو قليلًا بين ما استقر عليه وبين ما تركه وعافاه ، لا يتعصب لما ارتآه ، لأن أفقه قد هداه إلى أن الأمور لها أوجها متعددة ، وأن المسائل لا ترد إلى سبب واحد ، وأن القدرات البشرية نسبية ، فلا يضيق برؤية وحق غيره فى أن يكون له منظور أو رأى أو معتقد آخر !

يأتى التعصب من «ضيق الأفق» ،لأن الأفق المحدود أو الضامر أو المتقلص لا يرى إلاّ من زاوية واحدة ، يعتقد أنه بها يملك وحده زمام الحقيقة ، يراها هو ولا يستطيع أن يراها سواه ، فلا يبدى فقط رأيه فى رؤية أو معتقدات الآخرين ، وإنما يصدر أحكاما غير قابلة للنقض أو المراجعة أو المناقشة ! ظواهر التطرف بأنواعها : الفكرية ، والدينية، والمذهبية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ترتد جميعها إلى أفق ضيق اعتنق ما يراه ورفض رؤية غيره رفضًا جازمًا جامدًا لا يتزحزح

ولا يقبل نقاشًا لا يطيق حوارًا ! .. يحسب الحوار أو الاختلاف كفرًا أو انتقاصًا من قدره وقوة امتلاكه هو للحقيقة .. لا يستطيع أن يدرك أن حقه فى معتقده ، يقابله حق الآخرين فى أن تكون لهم معتقداتهم .. هذا الضيق أو التعصب لا يقود فقط إلى الاحتقان بين أهل الأديان ، وإنما قد يقود إلى اختلافات بل واحتقانات بين أهل الديانة الواحدة .. إلى هذا تعزى الانشقاقات أو المذاهب أو الطوائف أو الملل أو الفرق المتفرعة عن الأديان ، بقى بعضها فى دائرة الاعتدال والاختلاف الفقهى ، واشتط بعضها إلى خلافات ومنافرات بل وعداوات تاه فيها الدين نفسه وسط عوادم التناحر والتصادم وانتصار كل لما يريده ولا يفهم ولا يستطيع أن يفهم سواه !!

مساحة الأفق الآدمى ، خاصية متعدية مانحة ، تؤثر سلبا وإيجابا ، ويتحدد تبعًا لها ، ضيقًا أو اتساعًا ، قوةً وصفاءً بوصلة الآدمى وقدرته على الرؤية من جوانبها المختلفة ، وحدودها المتنوعة .. حين تتسع الرؤية ، متزاوجة بالعقل والفهم ، تضمر ثم تتلاشى الأسباب الوهمية للاحتقان ، وتتنامى القدرة العاقلة لتحليل وسبر ومعالجة ما عساه يكون من أسباب تستوجب الإيضاح أو العلاج .

*****

الجماعة الوطنية : وسحابة الحادث الأخير ! (*)

أستطيع بكل التعاطف والعقل معا ، أن أتفهم رد فعل الغضب الغضوب للإخوة الأقباط على اعتداء غاشم من منفلت عقلا أو سلوكا على المصلين بثلاث كنائس بالإسكندرية ! رد الفعل الغاضب الغضوب شعور إنسانى طبيعى اجتاحنا جميعا من هول أن يتعرض مصلٌّ أيا كانت ديانته لطعنةٍ غادرة أو مجنونة بينما هو منصرف عن الدنيا وشواغلها ، مستغرق بكل حواسه ومشاعره فى عبادة ربه ، لا يدور ولا يمكن أن يدور بخلده ، ولا بخلد أحد ، أن تمتد إليه أو إلى سواه من المصطفين إلى جواره للصلاة أيادى العدوان والغدر والتهجم والعصف بالأرواح وسلامة الأبدان .. لن نفهم ونتفهم ردة فعل الغضب الغضوب ، ويتسع تسامحنا وفهمنا ، إذا لم ندرك الظروف المحيطة ، وما تتعرض له الجماعة الوطنية من سهام تلعب على أوتار مفتعلة لإشعال حريق بين أبناء الوطن يأتى على الأخضر واليابس !.. من حق القبطى على كل مسلم فى مصر أن يكون له درعًا من أى جموح أو انفلات مريض أو مجنون ، ومن حقنا جميعا أقباطا ومسلمين أن نتوقع من الأمن المصرى رعاية أوفر وأكثر حداثة وفاعلية من الأداء التقليدى الذى يكاد ينحصر فى «أساليب عتيقة» تغلق الشوارع وتلغى طرقات وتضع متاريس

(*) الأهرام ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٦.

تضيق على البسطاء فى حركتهم وشئون حياتهم ، بينما يستطيع «واحد» أجل واحد مدرب تدريبًا جيدًا مزودًا بالإمكانيات الحديثة أن يقى رواد دور العبادة من مثل هذا الهجوم الأحمق الغادر المجنون .. من واجبنا أن نفهم أنه إذا كان الحادث المروع قد أصابنا نحن المسلمين بألم غائر ، وحرك لدينا استنكارًا عريضًا ، فإن التأمل يوجب أن نعطى لغضب الإخوة الأقباط هامشًا أكبر من الفهم والتسامح ، فمن حقهم فى هذه اللحظة المروعة أن يحسوا أن المصاب مصابهم ، وأن الكارثة لحقت بهم وبأمانهم ، وتثير مخاوف لا تنتهى من الحاضر والمستقبل فى الوطن الذى ضمهم وضمنا جميعا فى الماضى والحاضر ، وهو هو موئلنا الذى لا موئل لنا سواه أقباطًا ومسلمين فى آتى أيامنا !!

أكتب هذا أخاطب به المسلمين الذين أنتمى إليهم ، ولست أخفى أننى أكتب بقلب واجف قلق من بوادر مؤسفة أخذت تشرئب تورى باحتمالات تصعيد يخفق لها قلب مصر .. أكاد أرى بإشفاق هائل ما يمكن أن ينتظرنا من أزمات إذا استسلمنا لردود الفعل التلقائية المنفعلة !.. إذا لم نفسح مساحة واسعة عميقة للفهم ، ومساحة أعرض من الإسماح وسعة الصدر حتى ينقشع غضب من واجبنا أن نكفكفه وأن ندرك ونتفهم أسبابه ودواعيه ، وأن ما يزيح غمته هو هذا الفهم المشترك ودفء التعاطف الإنساني والإسماح الذى يتسع لغضبة الغاضب ، ويتسع لطمأنة الروع والقلق والانزعاج !! .. يفرض هذا ، فوق ما تقدم ، أن هناك تيارات وقوى متعددة تستهدف وحدة وأمان هذا الوطن ، وتريد أن تشعل نارًا لا تنطفئ ، وأن تبلقنه كما بلقنت وتسعى لبلقنة سواه !!

هذا الحادث المؤسف ، يستدعى أن نأخذ بجدية أكثر ما قلناه ونقوله فى كل مـرة يداهمنا فيها واقعة مفاجئة ، من وجوب أن نخرج من حالة «اللا توقع» ،وأن تمتد رؤيتنا ومعالجتنا ومصارحاتنا إلى أبعد من مجرد تجاوز القارعة التى جدت ! هام جدا أن ننمى ملكة الالتفات والتفطن ، وأن نغوص إلى الجذور فى صدق وصراحة بلا أى حساسيات ، وأن نتحاشى ما نقع فيه دوما ، من رد فعل ساخن ، حقيقى وصادق ، نسارع إليه حين تدهمنا كارثة ، ندبج المقالات والخطب ، ونكثف بيان ما بين المسلمين والأقباط من أخوة عريقة ومن محبات ، ونتبادل الرأى والرؤية ، ونتنادى بسبل العلاج .. ثم لا نلبث حين تهدأ القارعة أو ينسحب لهيبها أن نسرع إلى ما درجنا عليه من نسيان وإخلاد إلى حالة «اللاتوقع «حتى تدهمنا قارعة جديدة تعيد استنفار الأفكار والمشاعر التى سكنت أو توارت فى زوايا النسيان المريح !

أحسب أن «الاحتقان» الذى لم يعد أمام أحد سبيلا إلى إنكاره أو المماراة فى وجوده ، يحتاج إلى بحث عريض يشارك فيه مفكرو وعقلاء الأمة ، وإلى صدق وصراحة وصبر وأناة ، وإلى تفتيش أعمق فى الجذور والأعماق وفى حياتنا وعاداتنا وسلوكياتنا ، وفيما درجنا عليه بحكم العادة أو الاعتياد المريح .. لا يكفى الارتياح إلى أن الإسلام والمسيحية بريئان من أى أسباب للاحتقان ، فهناك ملصقـات تتراكـم بفعل الناس لا بفعل الأديان ، وهذه الملصقات هى التى يرجع إليها ما يسود حياة الناس من التباس يستدعى أن نعمق النظر فيه لنفرز الأصيل من المصطنع ، والحقيقى من الوهمى ، والدائم من العرضى ، وأن نعطى مزيدا من الاهتمام بالعقل والعلم والثقافة ، فهى جميعا تصب فى صالح الاعتدال

واتساع الأفق ، وكلاهما يغلق منابع التعصب .. سعة الأفق سجية مانحة للقدرة على رؤية وتقبل كل الألوان والأطياف والتضاعيف ، وباب رحيب لعمق وسعة النظر ، ووقاية من الانغلاق والتعصب والشرود .. وأحسب أيضا أن مصير الوطن يستوجب بلا تحفظات مناقشة النظرية الأمنية التى ثبت احتياجها إلى مزيد من التحديث فى الرؤية العامة وفى الأدوات والوسائل .. وفى اعتقادى أن الرؤية الأمنية قضية مجتمعية يجب أن يهتم بها المجتمع بأسره لا رجال الشرطة وحدهم ، فجوانبها فى عصرنا باتت عديدة تدخل فيها السياسة والاقتصاد ، وتدخل فيها التكنولوجيا وتقنيات العلوم الحديثة ، ويدخل فيها الإلمام العريض العميق بحركات التدين وتياراته ، وبعلم النفس وتحليلاته ، فضلا عن معطيات النظريات والوسائل الأمنية الحديثة .. ليس من الإنصاف أن نرمى بكل أحمالنا على جهاز الأمن ، ففى حالة ومستوى الأمن ، تصب روافد عديدة من خارج الأمن بالمعنى الضيق .. كثير من القوانين والقرارات السياسية والاقتصادية لها مردودات أمنية ، وأزمات البطالة والأسعار ، والمساكن والعشوائيات لها مردودات أمنية ، وأزمة تراجع العقل وتخييم الجهل والإظلام لها مردودات أمنية ، ونضوب الملاعب والساحات الرياضية بعامة له مردودات أمنية .. كثيرٌ من أزماتنا يصب فى الأمن وينعكس عليه .. ومن القصور الضرير أن نحصر رؤيتنا فى المعالجة الأمنية بالمعنى الضيق ، مصير الوطن قضية بالغة الخطر والتركيب ، تحتاج إلى رؤية شاملة تفتح صدرها وبصيرتها لكافة المعطيات السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والاجتماعية ، الرسمية وغير الرسمية ، وتنشد الحكمة بلا أى حساسيات لدى رصيدنا الهائل من المفكرين والعقلاء ، لنحسن التشخيص، ونحسن المسير بسفينة الوطن إلى شاطئ الأمان !

الجماعة الوطنية : وآلية الرعاية الواجبة !(*)

استلفتنى وأنا أراجع حادثات الاحتقان الطائفى فى السنوات الأخيرة ، أنها أكثر كثيرا من الماثل الآن فى ذاكرتنا ! بدت أمامى كجزر متفرقة، زمانا ومكانا ، لا يجمعها إلاّ الالتباس وضيق الأفق ، وأسلوب ونمط واحد يتكرر فى مواجهتها والتعامل معها كل مرة ، نتنادى جميعًا مسلمين وأقباطًا لمواجهة الحادثة ، مكررين ذات العبارات المتداولة فى كل مرة عن وحدة النسيج المصرى ، والتآخى بين المسلمين والأقباط عبر التاريخ ، ووجوب الحفاظ على وحدة الأمة ، حتى إذا خبت الانفعالات ، عدنا إلى ما كنا فيه من رخاوة مريحة ، وبلا تفطن ولا استبصار ، حتى تدهمنا حادثة أخرى !

هذا الكلام الذى كتبته سلفـًا ، وكتبه غيرى ، يعنى أننـا نواجه «حوادث» متفرقة ولا نواجه «الحالة» .. والفارق بينهما كبير! مواجهة الحادثة محدودة بواقعتها وأسبابها المحلية الضيقة المصبوغة بخصوصية أطرافها ومناسبتها ومكانها وزمانها ، بينما مواجهة الحالة تستدعى دراسة شاملة للجذور والأسباب والدوافع البعيدة والقريبة ، واستكناه الراقد بالتراكمات فى الأعماق ، وبحث ومناقشة المتوارى الخبئ قبل الظاهر المتبدى ، والالتفات إلى الحالة النفسية وما يصب فيها من روافد عديدة ترتد إلى تراجع العقل وانحسار الفكر والثقافة بما يستتبعه ذلك كله من

(*) الأهرام ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٦.

ضيق الأفق وتفشى التعصب الذى لا يستطيع أن يرى إلاّ من ثقب ضيق ولمنظور واحد دون سواه !

على أن مواجهة الحالة لا تقتصر على هذا الرصد العريض العميق الواجب ، وإنما هى تستوجب التصدى بتقديم ومداومة تقديم العلاج : علاج الحالة لا الحادث ، مع استمرار «الرعاية» استمرارًا مستمرًا موصولًا غير متقطع بين واقعة ثم أخرى .. هذه الرعاية كرعاية الشجرة التى تحتاج إلى تخصيب التربة والعناية الدائمة بها ، وإلى المناخ وتلافى تقلباته، وإلى مقاومة الآفات الدائمة والطارئة ، وإلى ملاحقة الشجرة بالرى وبالمخصبات !!

وفى اعتقادى بعد تأمل طويل ، أن إخفاقاتنا ترجع إلى «انعدام» وجود «آلية» تختص وتكفل هذه الرعاية» التى يجب أن تكون مستمرة موصولة .. منطق «الجزر» (جمع جزيرة) الذى درجنا به على إطفاء لهيب الحوادث المتفرقة ، يعنى انعدام أى «رعاية «للحالة فى المساحات الزمنية طالت أم قصرت بين الحادثة والأخرى .. هذه «الرعاية «تلزمها «آلية «مختصة ومهيأة وراغبة وقادرة على استمرار البذل والرعى ومداواة الحالة لا الواقعة ! والعناية الموصولة الفاعلة بما تحتاجه وتستوجبه !

أين هذه الآلية التى أعنيها ؟!

وما هى الجهة أو الوزارة أو الهيئة الموكولة إليها ؟!

لقد درجنا على إنشاء نظارات ثم وزارات للخارجية والداخلية والعدل والمعارف والتعليم العالى والرى والزراعة والصناعة والتعدين والحربية والثقافة والإعلام والإسكان والمرافق والعمال والهجرة

(أحيانًا) والشئون الاجتماعية (والقروية أحيانًا) والصحة والتعمير وشئون البيئة وشئون مجلس الوزراء ، وتداركنا هذه الوزارات وغيرها بقاعدة عريضة من المؤسسات والمرافق والهيئات ، ثم بالمجالس القومية المتخصصة وللمرأة والطفولة والأميّة والرياضة والشباب وحقوق الإنسان .. وليس بين هذه الترسانة العريضة «آلية «واحدة لرعاية «الجماعة الوطنية» مع أن رعايتها أوجب الواجبات ، وإهمالها يفتت الأمة والوطن !

واضح أننا رمينا أحمالنا على الأجهزة الأمنية ممثلة فى وزارة الداخلية ، ومع التسليم بمسئوليتها عن الأمن العام بما يستتبعه من تجفيف منابع الانحراف أو الإجرام ومحاصرة أو السيطرة على أى انفلات أمنى وتعقب مقارفيه ، وتوفير الأمن الذى لا خلاف على أنه تصب فيه هو الآخر روافد عديدة اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية ، إلاّ أن «رعاية» «حالة» الجماعة الوطنية وما أورت به عبر سنوات من احتقان أو التهاب ، تستلزم «آلية» مختصة مهيأة متفرغة راغبة مالكة للقدرات والإمكانيات والأدوات والوسائل والجسور المؤثرة على كافة أطراف الجماعة الوطنية أفرادًا وهيئات !

المطلوب من هذه «الآلية» أن تمتلك زمام العقل والإخلاص والبعد التام عن التعصب الظاهر أو المستتر ، وأن تضم فى مكوناتها زبدة العقول وصفوة الحكماء والمفكرين من المسلمين والأقباط ، وأن تمثل فيها كافة العناصر القادرة على القيام بعقل وحكمة بهذا الدور الوطنى الكبير ، وأن تتاح لها من كافة الجهات الرسمية والشعبية ، ومن كافة القوى الوطنية مساحة عريضة للتحرك الفاعل المؤثر على كافة القنوات والمحاور !

لـن تستطيع هذه «الآلية» الواجبة المأمولة أن تضطلع بالعلاج ما لم تحسن تشخيص الداء .. وتشخيص الداء يستلزم فضلًا عن عمق البحث مصارحات تعلو فوق جميع الحساسيات ، وهذا فى معتقدى أول موجبات توفير هـذه الآلية ، لأن هناك مـن الموضوعات واجبة البحث ما لا يجوز أن يناقش إلاّ بين حكماء وفى الغرف المغلقة ، تلافيًا لإثارة الحساسيات ثـم الاحتقانات ثـم الالتهابات ثم الفورات .. البحث الواجب لا ينحصر فى الأسباب الخاصة أو المحلية لواقعة أو أخرى ، وإنما يحلق ليستطلع الأسباب العامة .. قضية دور العبادة التى تحتاج إلى مناقشة عريضة صريحة تضع كل شىء فى موضعه الصحيح، وقضية الوظائف ، وقضية استسهال البعض الاستقواء بالخارج وما تثيره من ردود أفعال ، وحدود دور الأزهر والكنيسة وحدود الدينى والسياسى ، وقضية الخطاب الدينى وحدود ما يجب التوقف من الطرفين عنده فى ظل تسليم مشترك بحق كل مسلم أو قبطى فى الإيمان بعقيدته دون التعرض بالتجريح لعقيدة الآخر .. هذا التعرض الذى لا يزكى هذه العقيدة أو تلك ، وإنما يثير المشاعر ويفتح أبوابا لا تنغلق للالتهاب ! .. قضية التعليم وحق كل صاحب عقيدة فى أن يتلقى بحصة الدين دروس عقيدته لا عقيدة سواه، إلى غير ذلك من القضايـا التى لا يحسن ولـو مجـرد طرح عناوينها إلاّ بداخل «الآلية» الواجبة المأمولة بين حكماء يملكون العقل والبصيرة والرؤية العميقة العريضة الشاملة .. من المحال ، بل ومن غير المأمون ، فتح هذه القضايا على حساسيتها المفرطة للنقاش العام فى

مجالات مسموعة أو مقروءة قد لا تملك أو لا تملك بالقدر الكافى العلم اللازم وأدوات البحث والنظر ، وقد لا تملك العقل والحكمة لضبط ما يقال وما لا يقال للقاعدة العريضة التى تحتاج إلى خطاب خاص لا يغادر الدين ولكن يأخذ بأيدى البسطاء أو المتحفزين للالتهاب إلى الصراط المستقيم الذى يصلهم وصلًا صحيحا بالدين ، ويقيهم ويقى الدين نفسه من مغبة الحول فى فهم الحقائق والأشياء !

كان ظنى ولا يزال أننا نحتاج احتياج ضرورة ولزوم ، إلى هذه «الآلية» ، ونحتاج إلى قدرتها على التواصل الفاعل المؤثر بإبداء حصيلة بحثها فى كل موضوع وما يستلزمه ، إلى كافة الجهات المعنية كل فيما يخصه ، لا أمل فى العلاج ما لم تستطع هذه «الآلية» أن تبث ما خلصت إليه بثًا مؤثرًا إلى محاور عديدة لا غناء عنها وعن دورها المقتنع الفاهم المخلص لإنجاز هذه المهمة الوطنية الكبرى .. قضية الخطاب الدينى ولوازمه ، تحتاج كمثال إلى خطاب مع الأزهر والأوقاف والكنيسة والتعليم والثقافة والإعلام ، ثم هى تحتاج أيضًا إلى خطاب صريح مع بعض صحف لا تعطى لردود الأفعال المخيفة على ما تنشره حق قدرها ، فتسرف على الجماعة الوطنية وعلى مصير الوطن إسرافًا يستوجب وقفة مصارحة تبين الحدود والآثار المدمرة للوطن إن لم نفق مما تتردى فيه بعض المعالجات !

على قدر عراضة المهمة الوطنية المأمولة والواجبة ، ولا يتسع المجال لتفاصيلها ، على قدر ما يجب أن يتوفر لهذه «الآلية» التى أعنيها من

مكنات وقدرات وفرصة ومساحة واسعة للتناول والفعل .. أتخيل هذه «الآلية» بعيدة عن الرسمية ، وأتخيلها شاملة كافة العناصر القادرة على العطاء على قدر عراضة المهمة ، وأتخيلها تشكيلًا كفكرة المائدة المستديرة، مقرر مسلم ، ومقرر قبطى ، يؤمنان بحرية وحق الاعتقاد ، وبالتآخى بين الأديان ، ويفتحان العقل والصدر لآليات تتعاون معهما فى إطار لجنة وطنية ، تمتد عناصرهـا بذات هذه الروح إلـى كافة ربوع وقطاعات الوطن ، لتبدأ مهمتهـا الكبرى فى علاج «الحالة» وحماية مصر من خطر هائل بات يهدد جماعتها الوطنية !

*****

اللى الأوطان بتجمعهم
عمر الأديان ما تفرقهم ! (*)

من قرابة قرن ، غنى سيد درويش للناس : «اللى الأوطان بتجمعهم عمر الأديان ما تفرقهم»! هذا الذى صدح به سيد درويش وتغناه الناس عنه ، قد صار فى زماننا إلى «حبة فوق وحبه تحت»! هذا محض مثال لهبوط المستوى وانحدار اللغة وتفاهة المعنى وتوارى المواهب ومعها الروح وعبقرية الانصهار والتعبير والامتزاج بالوطن وقضاياه !

كان من وراء سيد درويش جنود مجهولون أو معلومون من شعراء ومؤلفى الأغانى .. هم الفرسان أصحاب الكلمات التى تعانقت معها عبقرية سيد درويش الموسيقية .. حكى لنا الدكتور محمود الحفنى أول لقاء بين سيد درويش وبديع خيرى الذى صار بعد ذلك مركز تموين زجلى لأغانى سيد درويش ، وكيف دار لقاؤهما الأول الذى انضم إليه نجيب الريحانى حول مقطوعة بديع خيرى : «مصر والسودان «أو «دنجا دنجا دنجا» .. فوجئ بديع بكلماتها تنساب بألحان سيد درويش ..

ما فيش هاجة اسمه مصرى : ولا هاجة اسمه سودانى . نهر النيل رأسه فى ناهية : رجليه فى الناهية التانى . فوجانى يروهوا فى داهية : إذا كان يسيبوا التهتانى .

(*) جريدة المال ١٨/ ٦/ ٢٠٠٨.

الوعى الذى فجر عبقرية سيد درويش ودفعه إلى صياغة لحن «اللى الأوطان بتجمعهم عمر الأديان ما تفرقهم» ، هو الذى جعل الشاعر إسماعيل صبرى باشا يبادر فينشد فى أعقاب اغتيال بطرس باشا غالى:

دين عيسى فيكم ودين أخيه :أحمد يأمراننا بالإخاء.مصر أنتم ونحن إلاّ إذا :قامت بتفريقنا دواعى الشقـاء . مصر ملك لنا إذا ما تماسكنا : وإلاّ فمصر للغرباء !

هل كان محض صدفة أن يبرم فى ١٩٢٣/٨/١ «عقد أغانى الشعب» بين الشيخ سيد درويش ، والمهندس المسيحى إميل عريان مخترع البيانو الشرقى ، وأن يتضمن تأسيسهما معا شركة مشتركة باسم «أغانى الشعب» لتلحين وإنتاج وتصريف وتوزيع هذه الأغانى بجهد مشترك التأمت فيه عبقرية سيد درويش الموسيقية مع الخبرات الفنية لإميل عريان .. وأن يرد بالعقد إلتزام الشيخ سيد درويش بأن يتحاشى استعمال ما يسمونه «البمب» فى مفتاح fa كما هو الحاصل فى جميع الأدوار المدونة بمعرفة ماتيلده عبد المسيح ومنصور أفندى عوض وقسطندى أفندى منسى» ؟!

أين نحن الآن من تلاقى الهلال والصليب الذى وعاه أسلافنا فى الفنون والمسرات ، وفى المحن والأزمات .. أين الإسماح الذى لولاه لما قدمت سينمائيا قصة البوسطجى لأدبينا الفذ يحيى حقى مع ما تناولته

من موضوع بالغ الحساسية فى قرية كوم النحل من أعمال مديرية أسيوط بالصعيد ، حول قصة حب بين جميلة إبنة المعلم سلامة القبطى الأرثوذكسى وخليل إبراهيم المدرس البروتستانتى ، وما أثمرته هفوة اجتبا فيها الشباب جزيته من الفتى والفتاة وتعقدت خيوطها على تداعيات فضول البوسطجى عباس !

ظنى أنه لم يعد جائزا الخلود إلى ما كنا عليه ، ولا الاتكال على لطف المقادير . ناديت من عامين (أهرام ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٦) بحاجتنا إلى إنشاء آلية دائمة ومتفرغة لرعاية الجماعة الوطنية ، تستطيع بتجردها وخبرتها ، وفى الاجتماعات المغلقة بعيدا عن إثارات الاحتقان ، أن تناقش كل الأمور بصراحة بلا حساسيات ، وأن تضع الحلول الموضوعية ، وأن تتواصل تواصلا مستمرا مع كافة الجهات المعنية ، لتجفيف أسباب الاحتقان ، وتفتيح العقول والصدور فى إطار لجنة وطنية تمتد عناصرها بهذه الروح إلى كافة قطاعات وربوع الوطن !

*****

الوحدة الوطنية أقوى من الأعاصير (*)

فى أوليات القرن الماضى ، امتحنت الأمة المصرية امتحانًا عسيرًا إثر الاغتيال المؤسف لبطرس غالى رئيس مجلس النظار فى (٢٠) فبراير ١٩١٠ . ومع أنه فور القبض على القاتل صرح بدوافع جريمته ، وكلها محصورة فى أسباب سياسية لا علاقة لها بالدين ، ما بين اتفاقية السودان (١٨٩٩) ورئاسة المحكمة المخصوصة فى حادثة دنشواى ، وإعادة قانون المطبوعات ، واعتقاده أن لبطرس غالى باشا سعيًا حثيثًا لتمرير مد امتياز شركة قناة السويس . إلاّ أن سلطات الاحتلال لم تترك هذه الحادثة تمر دون استغلال لضرب النسيج الوطنى ، وأخذ المعتمد البريطانى يلعب على هذا الوتر لإثارة الشعور القبطى على اغتيال بطرس باشا غالى، ويدفع الأمور إلى عقد مؤتمر قبطى احتجاجى فى أسيوط ، بالرغم من أن بطرس غالى نفسه كان ضد هذا المؤتمر الذى طرحت فكرته وعارضها قبل اغتياله !

وبرغم كل عوامل التأليب والتأجيج إذ بواصف بطرس غالى ابن الرئيس الراحل ، يكتب إلى إسماعيل باشا أباظة خطابا نشره فى جريدة الريفورم ينوه بجهوده لاتقاء الفرقة ويطمئنه إلى أن الوفاق تام بين العنصرين وأنه لا يحتاج إلى لجان ولا مؤتمرات ، وأنه هو شخصيًا

(*) الأهرام ١٠/ ٧/ ٢٠٠٨.

قد تناسى الحملات التى وجهها بعض الكتاب إلى المرحوم والده فى بعض الصحف اقتناعًا منه بأنها لا تعبر عن عقلاء الأمة ، وذكر واصف بطرس فى رسالته قالة الخديو وشيخ الأزهر له عن الأعمال الطيبة لمصر والتى سجلها التاريخ للمرحوم والده بطرس باشا غالى ، واستطاعت الجماعة الوطنية بحكمة هؤلاء الحكماء أن تحتوى انفلاتات مؤتمرى أسيوط ومصر الجديدة (مارس وأبريل ١٩١١) ، أن تعبر الأزمة بسلام حفظ لها وحدة ومتانة نسيجها .

من المفارقات أن تمضى سنوات قبل أن يكشف أحمد شفيق باشا الستار فى مذكراته عن موقف وطنى جرى من وراء الكواليس بين بطرس غالى وسعد زغلول ، اقتضت المصلحة العليا للبلاد أن يتوارى وراء مشهد ظاهرى بدا فيه الوزير سعد زغلول فى صورة المدافع مع الحكومة عن قبول عرض مد امتياز شركة قناة السويس الذى كان أحد أسباب الاغتيال المؤسف ، بينما كان ذلك كله سترًا لاتفاق تم بسعى من سعد زغلول وآخرين وقبول من بطرس غالى رئيس النظار ، بعرض المشروع على الجمعية العمومية المقدر سلفًا أنها بالتأكيد سوف ترفضه ، بينما يبدو الوزير سعد زغلول مدافعًا (فى الظاهر) عن المشروع المتفق سرًا على رفضه ! وعلى أن يتولى سعد زغلول إبداء وجهة نظر الحكومة للتمويه ، وحتى يمكن إدخال فكرة استشارة الجمعية العمومية على المعتمد البريطانى الذى التقط الطعم !

تضاعيف هذا الموقف يجب أن تروى ، لأنه مثال على إنكار الذات فى سبيل المصلحة العامة مهما بدا سعد زغلول فارس الوطنية فى صورة ظاهرية لا يرضاها ولا يرضاها الشعب!

قبل سعد زغلول بالاتفاق مع بطرس غالى أن يترك «المظهر» إلى «المخبر» .. وأن يظهر شكلا فى مشهد بدا فيه نقيض ما تريده الأمة ليحقق للأمة ما تريده .. عاش معى لسنوات أن سعد زغلول المشهور بقدرته الفذة على الاقتراب من الجماهير والرأي العام ، قد خالف إجماع طوائف الأمة حين انحاز إلى مدّ امتياز شركة قناة السويس ، وتبنى عرض هذا النظر كوزير ممثل للحكومة أمام الجمعية العمومية !!.. ظلت معى هذه الصورة لسنوات إلى أن أخذتنى الكتابة فى «رسالة المحاماة» إلى مذكرات أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى لسنوات طويلة ، كان فيها فى قلب الأحداث التى سجلها فى مذكراته التفصيلية التى شغلت أربعة مجلدات .. ربما لاحظ القارئ لمذكرات شفيق باشا أن هواه لم يكن مع سعد زغلول ، وربما لاحظ غمزًا عليه فى بعض الأحيان ، ومن هنا تأتى قيمة شهادته التى وقعت عليها بالصدفة وأنا أفتش عن دور المحاماة فى الحركة الوطنية فصححت خطأ لازمنى لسنوات ، وكشفت صورة رائعة مناقضة لآفة الاستعراض بلغت حد قبول سعد زغلول بتضحية ظاهرها يسحب من صورة الزعيم فى عيون وأذهان الناس !

كان الظن على ما شاع ، أن سعد باشا كان هو ورئيس النظار بطرس غالى من المشايعين لمشروع مد الامتياز ، مادام سعد هو الذى تولى عرض وجهة نظر الحكومة المصرية المؤيدة للمشروع على الجمعية العمومية ، إلى أن كشفت مذكرات شفيق باشا أن سعد زغلول ورشدى باشا ومحمد سعيد باشا كانوا معارضين للمشروع ، وأنهم حينما تحدثوا بذلك مع

بطرس باشا غالى رئيس النظار ، نبتت فكرة عرض المشروع على الجمعية العمومية ورفضها له مقطوع به للتخلص من ضغط سلطات الاحتلال على الحكومة لتمرير مد الامتياز .

ويروى أحمد شفيق باشا (جـ ٣ / ١٨٧ ، ٢٠٧) أن بطرس باشا غالى رئيس النظار اقتنع بالفكرة ، وأنه نجح فى إقناع المعتمد البريطانى بضرورة استشارة الجمعية العمومية ليكون رأيها هو الفيصل . ومن هنا نبعت فكرة أن يكون سعد باشا زغلول بمكانته ، هو الوزير الذى يتولى عرض وجهة نظر الحكومة المشايعة للمشروع على الجمعية العمومية !

تنفيذ هذا المشهد يسحب من رصيد سعد زغلول لدى الأمة التى كانت ترفض هذا المشروع على قلب رجل واحد ، ولكنه يضيف إلى رصيد الوطن ، ويحقق الرغبة الوطنية باللجوء إلى الجمعية العمومية التى كان مقطوعًا سلفًا بحكم تشكيلها أنها سوف ترفض المشروع وقد كان !

إذن ! لم يكن رأى الحكومة الذى أبداه سعد زغلول بجلسة الجمعية العمومية ٧ فبراير ١٩١٠ قبيل اغتيال بطرس باشا غالى بأيام ، هو واقع رأيه وموقفه وموقف الحكومة ورئيسها من المشروع ، وإنما هو موقف (ظاهرى) يسحب من رصيد سعد زغلول أمام الأمة ليحقق لها وللوطن ما تريده ! هذا الموقف الفريد يستحضر صور أمراض المظهرية والاستعراض التى تعطى ظهرها للواقع الحقيقى الفاعل ، وتستقرب رضاءات مخدوعة !

باقى القصة أن المشروع عرض على الجمعية العمومية التى تحدد لاجتماعها ٩ فبراير ١٩١٠ وفيه رفضت بالإجماع عدا واحد ! مشروع مد الامتياز !

هل وصلت الجماعة الوطنية ، بمسلميها ومسيحييها ، الحاضر المعاش بالماضى البديع الذى كان ؟! حضرنى هذا السؤال وأنا أسترجع هذه المشاهد وأتابع الحركة الوطنية إبان ثورة ١٩١٩ .. فى أعقاب بلاغ دار الحماية البريطانية عن قدوم لجنة ملنر ومهمتها ، اندلعت مظاهرات الاحتجاج الوطنية ، حتى اضطر محمد سعيد باشا رئيس الوزراء المسلم ، والمقرب آنذاك من السراى ، إلى تقديم استقالته إلى السلطان فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ انصياعًا للمد الوطنى الذى استشعر معه أنه لم يعد يوجد محل لتهدئة الخواطر التى كانت دافع السراى لتكليفه برئاسة الوزارة !

فى تلك الأيام بالغة الحساسية فى تاريخ الحركة الوطنية فى مصر ، شاعت مقدمات أن القبطى الكبير يوسف وهبه باشا ، بسبيله إلى قبول تشكيل الوزارة الجديدة البديلة ، وترددت أسماء الوزراء المزمع حمل حقائبها معه ، وجميعهم فيما عداه من المسلمين ، حتى ضجت البلاد بسخط عام شاركت فيه كل طوائف الأمة ، بيد أن الأقباط سارعوا إلى خطوة أكثر إيجابية فى التعبير عن استيائهم من رئيس الوزراء القبطى القادم .. فأقاموا إجتماعًا صباح الجمعة ٢١ نوفمبر ١٩١٩ فى الكنيسة المرقسية الكبرى ، برئاسة القمص باسيليوس وكيل البطريركية ، وأعلنوا فيه سخطهم على قبول وهبة باشا تشكيل الوزارة التى لم يكن مرسوم تأليفها قد صدر بعد ، وخطب فى هذا الاجتماع القبطى الحاشد بالكنيسة المصرية : القمص سلامة منصور رئيس المجلس الملّى بالقاهرة ، والأستاذ توفيق حبيب ، والأستاذ لويس فانوس ، والقمص مرقص سرجيوس ، وكامل أفندى جرجس عبد الشهيد بالنيابة عن الطلبة ،

وبادر الحاضرون بصياغة برقية احتجاج ومعارضة إلى يوسف وهبة باشا ، وقعها بالنيابة عنهم القمص باسيليوس ، قالوا فيها :

«الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيسة الكبرى تحتج بشدة على إشاعة قبولكم الوزارة .. إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام ، ومقاطعة اللجنة ، فنستحلفكم بالوطن المقدس ويذكرى أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن» !!

أين هذا مما بات عليه الحال اليوم من احتقان وتمحور البعض من المسلمين والأقباط وغلبة التعصب والانحياز الضرير عليهم ، وأين هذا من استقواء البعض بمن لا يضمرون خيرًا للأمة المصرية ؟! ما هى التلال التى زحفت فصارت جبالًا حجبت عنا جميعًا هذه الصورة الوضّاءة التى عاش عليها النسيج الوطنى وحارب بها قضاياه وسطر صفحات اختلطت فيها دماء القبط بدماء المسلمين مثلما حدث فى معركة تحرير الوطن المقدسة التى جرت فى أكتوبر ١٩٧٣ ؟!

لازلت آمل فى استجابة جميع الأطراف إلى دعوتى القديمة الجديدة المتجددة (أهرام ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٦) ، إلى تشكيل آلية قبطية مسلمة ، بعيدًا عن الرسميات وقيودها ، وفى باحة الفهم والتسامح ، لتبحث فى الغرف المغلقة، بعيدًا عن الإثارة والاحتقان ، الأسباب التى طرأت على الجماعة الوطنية ، وتستقصى فى تجرد وإسماح سبل حلها ، لتحفظ للوطن وحدة نسيجه كما تحفظ قداسة ترابه ونيله !

*****

رعاية شجرة الوحدة الوطنية (*)

فارق كبير بين أن ترعى الشجرة وتواليها بالرى والتخصيب ، وبين أن تتركها أو تنساها وتنصرف عنها حتى تذبل فيستدعيك ذبولها إلى ملاحقتها بما فاتك أن ترعاها به .. هذا التدارك اللاحق قد ينجح بلطف المقادير ، وقد لا ينجح !

ومن الخطأ البين أن تترك الشعوب مصائرها إلى لطف المقادير ، أو تنتظر غافلة ساهية حتى تدهمها قارعة توقظها من الرخاوة وقلة التفطن، وتستدعى استخراج كل ما لديها لمداركتها مداركة كثيرًا ما تكون متسرعة بل سطحية تحت ضغط الحدث ، حتى إذا انحسرت موجته ، عادت «ريما» لعادتها القديمة ، وغرقت فيما كانت فيه من سبات !

من الملاحظ المؤسف أننا قد صرنا ساهين غافلين عن رعاية شجرة الجماعة الوطنية ، لا نفيق إليها ، ولا نتعامل معها إلاّ بالقطاعى ، حين تدهمنا واقعة مفاجئة أو نعتبرها كذلك ، بينما أسبابها متحركة تتنامى من زمن فى الأعماق ونحن عنها غافلون !

عيب المعالجة القطاعى ، أنها تتوقف عند ملابسات الظرف ، وتقتصر رؤيتها وعلاجها عليه ، ولا تحيط بالأسباب العامة التى تتراكم وتسرع بأى ظرف عارض إلى سوء الفهم والإحتقان !

(*) الأهرام ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٨.

من المؤكد أن هناك تراكمات تزحف ، لم يعد مقبولًا معها أن نتركها للطف المقادير أو نتعامل معها بالقطاعى . الفارق بيننا وبين أسلافنا، أنهم كانوا على العكس مما بتنا إليه ! متيقظين متفطنين منتبهين مهتمين برعاية هذه الشجرة وتغليق أى منافذ يمكن أن تجلب إليها مفاهيم مغلوطة أو ملابسات تخلخل وحدة هذا النسيج وتؤدى بالتراكم إلى زعزعته .. ناهيك بتعريضه للأخطار والأعاصير !

فى عام ١٩٣٧ ، حينما بلغ الملك فاروق سن الرشد بالتقويم الهجرى ، وريم الاحتفال بتتويجه ، إقترح الأمير محمد على بن توفيق الوصى على العرش أن يجرى التتويج فى احتفال دينى يعقد فى القلعة ، ويتولى فيه شيخ الأزهر تسليم الملك سيف جده الأعلى محمد على باشا فى احتفالية موازية للإحتفال الرسمى ، يحضرها أمراء الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة. وراق الإقتراح للملك !

يروى الأستاذ محمد التابعى فى كتابه «من أسرار الساسة والسياسة» أنه التقى يومها بمصطفى النحاس خارجًا من لقاء الملك ويبدو عليه التجهم ، فلما سأله : «خير يا رفعة الباشا»؟ أجاب النحاس : «لا مش خير أبدًا ..أبدًا .. الملك كلمنى عن حفلات التولية وعايز حفلة تقام فى القلعة ، وشيخ الأزهر سامع يا تابعى يقلده فيها سيف جده محمد على ، والأمراء يكونوا حاضرين الحفلة ولابسين الهدوم اللى كان جدودهم بيلبسوها أيام محمد على .. انت عارف ياسى التابعى الدستور بيقول إيه»؟!

لفت النحاس النظر فى تيقظ فطن إلى مخاطر هذا الطابع الدينى المروم إسباغه على التتويج ، منوهًا إلى أن الملك ملك لجميع المصريين .. مسلمين

ومسيحيين .. وتمسك بأن يجرى التتويج طبقًا للدستور أمام الهيئة المشتركة لمجلسى الشيوخ والنواب .. وفى خطابه أمام مجلس النواب عقب على رغبة الاحتفال الدينى بأنها : «إقحام للدين فيما ليس من شئونه» .. وأنه يرأس حكومة تحترم الإسلام وتنزهه ، وتحرص أيضًا على احترام الدستور .

أيامها أيدت الصحافة موقف مصطفى النحاس ، وأيده عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» .. مؤكدًا أن اعتراض النحاس جاء فى محله وطبقا لما ينص عليه الدستور. وقد كان ما أراده النحاس .

هذا التيقظ الفطن ، هو الذى كفل رعاية شجرة الوحدة الوطنية وحفظ لنسيجنا الوطنى وحدته التى تجلت فى ثورة ١٩١٩ وتجلت لاحقا فى معركة أكتوبر ١٩٧٣ ، بل وفى ١٩٦٧ التى أصاب الدكتور المسيرى حينما أسبغ عليها «إنتشار ١٩٦٧» الذى عانت منه إسرائيل ، ولم تحقق بعده سوى إخفاقات متتالية لا تزال تترى حتى الآن رغم جلبة الأسلحة وحرب الدمار الجارية !

مهم جدًا أن نخرج من زقاق المعالجات المتقطعة ، لنستعيد ما كنا عليه من رؤية شاملة .. ظنى أنها باتت تحتاج بشدة إلى ما دعوت وسأظل أدعو إليه من تكوين آلية وطنية على نظام المائدة المستديرة بين حكماء المسلمين والأقباط ، لتشخص فى الغرف المغلقة ، وتتلمس سبل الرعاية الدائمة بمعاونة مخلصة من كافة الجهات المعنية بسلامة الوطن ووحدة نسيجه الذى عاش به وقاوم كل الأعاصير !

كيف نغسل أيدينا
من هموم الاحتقان ؟! (*)

بدا لى وأنا أراجع حادث القتل الأخير (٢٢/ ٧/ ٢٠٠٨) لجواهرجى قبطى بكفر الشيخ ، ومن قبلها حادث الاعتداء على قساوسة من دير أبو فانا بالمنيا أننا قد بتنا نتنفس الصعداء لمجرد أن يكون الحادث لأسباب غير طائفية أو سياسية ، فحادث كفر الشيخ لسرقة محل الجواهرجى ، وحادث دير أبو فانا بالمنيا لخلاف قديم على أرض ، وأنه ما دام الأمر كذلك ، فإننا نستطيع أن نغسل أيدينا من هموم مخاطر أو محاذير الاحتقان الطائفى ، ما دام الحادث ليس لأسباب طائفية !

فهل ذلك صحيح ، أو هل ذلك كافٍ ؟!

هل يكفى أن يكون القتل أو الاعتداء من مسلم على قبطى أو العكس ، لأسباب غير طائفية ، حتى نخلد إلى ذلك ونرتاح ونغسل أيدينا من هموم الاحتقان وما يجلبه ؟!

الشىء المؤكد أن عامة الناس لا يأخذون الأمور على هذا النحو ، حتى لو كان تفسير أسباب الحادث صحيحا .. فلا يستطيع الأقباط إزاء تقارب حوادث متشابهة ، وظروف محيطة بالجو العام تدفع إلى المزيد من سوء الظن ، أن يخلدوا حتى وإن اقتنعوا إلى هذه التفسيرات ، وكذلك

(*) جريدة المال ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٨.

المسلمون إن كان الاعتداء قد لحق بمسلم من قبطى أو أقباط . فما الحل لنخفف من الأعباء المتراكمة على حساسية الأوضاع الطائفية التى لا يحسن بالعقلاء تجاهلها ؟!

إن المدونة العقابية تضع ظروفًا مشددة لجرائم الاعتداء على الأشخاص ، كسبق الإصرار المبين بالمادة (٢٣١) عقوبات ، والترصد (م ٢٣٢) ، أو عند القتل بالسم (م ٢٣٣) ، و لاقتران بجريمة أخرى أو لتنفيذ غرض إرهابى (م ٢٣٤ ، ٢٣٦) ، أو لظروف خاصة بالجانى أو بالمجنى عليها أو عليه (م ٢٦٧ ، ٢٦٩) ، وكذلك فى التسلو المسلح أوعند التعدد أو ارتكاب السرقات بليل ، إلى آخر ما تحفل به المدونة العقابية من ظروف مشددة تغلظ فيها العقوبة فى الاعتداء على الأشخاص أو السرقة إذا ما اقترنت بظرف أو أكثر من هذه الظروف !

فلماذا إذن لا نفكر فى إضافة ظرف مشدد تقتضيه حماية السلام الاجتماعى إذا صاحب الاعتداء اختلاف الدين . قد يبدو الاقتراح غريبًا لأول وهلة ، ولكن قد تزول الغرابة إذا ما تأملنا اعتبارات الظروف المشددة بعامة ، وهذا الظرف المقترح إضافته بخاصة !

إن تغليظ العقوبة فى سبق الإصرار مستمد من الفرصة المتاحة للجانى للروية والتفكير بهدوء كانا كفيلين بإثنائه عن الجريمة ، لولا جنوحه وغلبة الشر والجرم لديه . ويستمد فى الترصد مما يتيحه للجانى من استتار فى الخفاء يمكنه من الجانى فى غفلة لا تتيح له الدفاع عن نفسه . وفى السم من خسة ودناءة وخفاء وغدر الوسيلة .

وفى الاقتران من تعدد الحقوق المعتدى عليها فى الجريمة ، وفى السطو المسلح أو التعدد وظرف الليل ، من المخاطر الكامنة فى هذه الظروف التى تتيح إتمام الجريمة !

حاصل ذلك أن عوامل تغليظ العقاب فى الظروف المشددة ، متغايرة متباينة مستمدة من اعتبارات مختلفة رأى المشرع فى كل واحد منها أنها تستأهل عقابا مغلظا لحماية الأمان والسلام الفردى والاجتماعى .

حين نفهم ذلك ، يغدو تشديد العقوبة عند اختلاف الدين ، عن جرائم الاعتداء على الأشخاص أو الخطف أو التهديد أو السرقة أو العدوان بعامة مستمدا من ظروف أكثر وجاهة وألزم وجوبا لأنها تحمى السلام الاجتماعى وتصون النسيج الوطنى من أخطار فادحة يفتحها على المجتمع كله جنوح جانح وإجرام مجرم . عدوان الجانى هنا ليس حسبه أنه عدوان على حياة أو جسم أو مال أو أمان شخص المجنى عليه ، وإنما هو عدوان مزدوج مركب يمتد إلى الاعتداء على السلام الاجتماعى ، ومع تعدد الحقوق المعتدى عليها فى الجريمة ، يغدو تغليظ العقاب عادلًا وموافقًا لقواعد تفريد العقاب ولسنن الإنصاف ومقتضيات التفطن والتبصر بمصالح البلاد .

*****

الوحدة الوطنية من تانى ! (*)

رعاية «الآلية» التى اقترحت تشكيلها للعناية بالوحدة الوطنية، وكنت قد فصلت الحديث عنها فى أهرام ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٦ رعاية موصولة حاضرة ومستمرة، لا تنتظر وقوع طارئ أو حادثة ملتبسة أو شاردة أو مقصودة لتعالجها بالقطّاعى، وإنما «آلية» دائمة ترعى النسيج الوطنى رعاية متيقظة ومستمرة .. علاج الحادثات المتفرقة محصور فى الغالب بضغط ظروف كل حادثة وحدوده المحلية والنوعية والوقتية، ولا تتاح له بضغط الظروف ورغبة الإسراع بتطبيب الاحتقان فرصة التوسع للتأمل فى الحالة العامة وما يصب فيها سلبًا أو إيجابا، وفى الأسباب الكامنة أو الظاهرة التى تسرع إلى سوء الفهم أو الظن وإلى الاحتقان .. احتقان الحادثة ليس ناجما فقط عن التباس طارئ، وإنما يرجع فى الغالب إلى حالة كامنة مستنفرة لسوء الظن. هذه الحالة هى التى من واجب ومكنات «الآلية» المقترحة أن تهتم بها وأن تراعيها دائما رعاية موصولة لا تنتظر وإنما تبادر إلى دراسة شاملة للجذور والأسباب والدوافع البعيدة والقريبة، واستكناه التراكمات الراقدة فى الأعماق، والتعرف على الخبئ المتوارى قبل الظاهر المتبدى، والتيقظ إلى الحالة النفسية وما يصب فيها من روافد بعضها يرجع إلى تراجع

(*) الأهرام ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٨.

العقل والفكر والثقافة وضيق الأفق والتعصب ، وبعضها يعزى إلى قضايا معلقة لم تحل أو لم تعالج بالقدر الكافى !

منطق «العلاج القطاعى» الذى درجنا عليه لإطفاء الحادثات المتفرقة تباعدت أو تقاربت ، يفوت النظر الهادئ الشامل ، ويحرم من رعاية الحالة العامة فى المساحات الزمنية طالت أم قصرت بين الحادثة والأخرى .. هذه المساحات الزمنية ليست «أجازة «للراحة ، وإنما فيها الفرصة للتأمل والنظر دون ضغوط وقتية لمعرفة وفهم الأسباب العامة ومداومتها بما تحتاجه وتستوجبه . بدون هذه الآلية الدائمة المقترحة ، نترك الأمور للطف المقادير ، أو لاجتهادات وجهود فردية لا تكفى مهما أخلصت لموالاة النسيج الوطنى بالرعاية !

نعم . هناك هم كبيرة فى السالف والحاضر ، خرجت وتخرج من المجتمع الرسمى والشعبى ، حاضرة التيقظ للنسيج الوطنى ، ملتفتة على الدوام لمقتضيات المحافظة عليه وتخصيب مقوماته ودرء أى عوامل يمكن أن تنحر فيه بالقصد أو بغير القصد .. ومع ذلك تبقى هذه «الآلية» المقترحة ، لازمة لتعويض أو مساندة الهمم الفردية ، بل والقيام بواجب أشمل وأعرض من خلال تشكيلها القبطى الإسلامى ، وأدواتها وقنوات العلاج والتأثير التى تتاح لها ..

بغير هذا التيقظ المستمر ، يتعرض النسيج الوطنى لعوامل نحر مرئية وغير مرئية ..رأيت وأنا أقلب فى صفحات الحركة الوطنية موقفا متنورًا متيقظا للزعيم الكبير مصطفى النحاس . كان الملك لـدى بلوغه عام ١٩٣٧ السن المطلوب لولاية العرش طبقا للتقويم الهجرى ، قد راقه

اقتراح الوصى على العرش الأمير محمد على توفيق أن يجرى التتويج فى احتفال دينى يقام فى القلعة ويحضره الأمراء والكبار ، ويقوم فيه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بتسليم الملك سيف جده محمد على باشا !

برغم حساسية الموضوع ، والرغبة الملكية المبداه ، اعترض مصطفى النحاس بشدة على هذا التتويج الدينى ، حالة كون الملك ملكًا لكل المصريين مسلمين ومسيحيين ، وتمسك النحاس باشا بأن يجرى التتويج حسب الدستور بالبرلمان أمام الهيئة المشتركة لمجلسى الشيوخ والنواب . تبنت الصحافة هذا النظر ، وداومت الكتابة عنه ، وكتب عبد الرحمن الرافعى رغم الخلاف بين الحزب الوطنى وحزب الوفد ، كتب فى مؤلفه : «فى أعقاب الثورة المصرية» (ثورة ١٩١٩) أن ما رآه النحاس هو بالفعل الذى يتفق وأحكام الدستور وما نصت عليه المادة (٥٠) من دستور (١٩٢٣] .. روى محمد التابعى فى كتابه «من أسرار الساسة والسياسة «أن مصطفى النحاس خرج متجهما مقطب الجبين من لقائه مع الملك ، فسأله : خير يا رفعة الباشا ؟ فأجابه النحاس : «لا .. مش خير أبدًا .. أبدًا» .. كان ذلك تعقيبا على الرغبة الملكية فى الاحتفال الدينى بالتتويج . وفى خطابه أمام مجلس النواب ، قال النحاس : «إن ذلك إقحام للدين فيما ليس من شئونه ، وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية» .. «الإسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده ، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الإسلام ، وتنزيه الإسلام ، كما أنه ليس أحرص منا أيضا على احترام الدستور» ..

فارق كبير بين أن ترعى الشجرة ، وتواليها بالرى والتخصيب ومقاومة الآفات أولا بأول ، وبين أن تنصرف عنها فلا يوقظك إلاّ ذبولها لتسارع بملاحقتها بما فاتك أن ترعاها به . وقد تنجح أو لا تنجح !

توجد لدينا وزارات وآليات للخارجية والداخلية والعدل والتعليم والرى والزراعة والصناعة والتعدين والحربية والثقافة والإعلام وإسكان والمرافق والعمال والهجرة (أحيانا) والشئون الاجتماعية والصحة وشئون البيئة ، وللمجالس القومية المتخصصة ، وللمرأة والطفولة والأمومة والرياضة والشباب وحقوق الإنسان ، ولكن لا توجد «آلية «مخصصة ومتفرغة لرعاية الجماعة الوطنية ، مع أن رعايتها أوجب الواجبات لوحدة وأمان النسيج الوطنى قاعدة الأساس لهذا كله !

الآلية التى أعنيها ، كيان يضم زبدة العقول وصفوة الحكماء والمفكرين من المسلمين والأقباط ، متفرغة للنسيج الوطنى ومقتضيات رعاية الجماعة الوطنية ، مالكة بجوار العقل والتيقظ لكافة القدرات والإمكانيات للقيام بدورها ، ومفتوح أمامها الوسائل والجسور المؤثرة على كافة أطراف الجماعة الوطنية .

فى الغرف المغلقة بعيدا عن الاحتقان والمحتقنين ، وبنظام الدائرة المستديرة ، سوف يتاح لهذه الآلية أن تفتش وتبحث فى جميع القضايا بلا حساسيات . لا ينحصر بحثها فى واقعة احتقان وقتية ، وإنما يحلق ليستطلع الأسباب العامة .. قضية دور العبادة التى تحتاج إلى مناقشة عريضة صريحة تضع كل شئ فى موضعه ، وتفرق فى وضوح صريح بين «الحاجة» وبين «الاستعراض » .. فى مساواة حقيقية تتيح للمسلم

والمسيحى مكانا للصلاة والعبادة ، ولا تسمح بأى عراقيل أيا كانت أمام الصيانة والإصلاح ، وتعالج قضية الوظائف وما يلتبس بها أحيانا من حساسيات ، كما تعالج قضية استسهال البعض الاستقواء بالخارج وما تثيره من ردود أفعال وسوء ظنون تؤدى إلى كثير من الالتباس والاحتقان ، وتنظر فى صراحة فى حدود الدينى والسياسى ، وما يتعلق بذلك حول دور الأزهر والكنيسة ، وقضية الخطاب الدينى وحدود ما يجب التوقف عنده فى ظل تسليم مشترك بحق كل مسلم أو قبطى فى الإيمان بعقيدته دون التعرض بالتجريح لعقيدة الآخر . قضية التعليم وحق صاحب كل عقيدة فى أن يتلقى بحصة الدين دروس عقيدته لا عقيدة سواه .. وحدود المدارس الأجنبية التى يغضى معظمها عن الإسلام ويتجاهله فى حصة الدين . المعالجات الأمنية وما تثيره أحيانا من مظنة أو التباس ، الانتقال بين الأديان والتفرقة بين حرية العقيدة وبين افتعال المواقف للترويج أو الإثارة. المعالجات الصحفية والإعلامية وحدود المباح فى إطار حرية الرأى والنقد والتعبير ، دون إغفال لمقتضيات حماية النسيج الوطنى والأمن القومى .. إلى غير ذلك من القضايا واجبة الطرح بداخل هذه «الآلية» بين حكماء يملكون العقل والبصيرة والرؤية العميقة العريضة الشاملة ..

كان ظنى كما قلت ولا يزال ، أننا نحتاج احتياج ضرورة ولزوم ، إلى هذه «الآلية» ،ونحتاج إلى دورها الدائم المتصل ، وإلى قدرتها على التواصل الفاعل المؤثر مع كافة القنوات والجهات المعنية بالشأن الوطنى : الأزهر

والأوقاف والكنيسة والتربية والتعليم والثقافة وكذا الإعلام المرئى والمسموع والمقروء . فهناك من الصحف ما تعطى معالجاته صورة مخيفة مؤثرة بالسلب على الجماعة الوطنية ومصير الوطن ، مما يستوجب وقفة مصارحة تبين الحدود والمعالم بين المباح والمحظور وتحفظ للنسيج الوطنى سلامته وللوطن أمانة من الآثار المدمرة لبعض المعالجات المغلوطة الشاردة !

مهم جدا أن نخرج من زقاق المعالجة القطّاعى ، إلى باحة الرؤية الشاملة والرعاية الموصولة ، وأن نسارع بتشكيل هذه «الآلية» .. بمبادرة رسمية أو شعبية أو رسمية شعبية ، تنهض بهـذا الواجب الكبير الذى لا غناء عنه لحفظ سلامة ووحدة النسبج الوطنى الذى عاشت به مصر على طول التاريخ !

*****

قدسية الروح فى الإسلام (*)
ليس من الإسلام قتل الأبرياء بغير حق !

ما حدث فى نجع حمادى عشية عيد الميلاد المجيد ، يدينه الإسلام ويشجبه ولا يقره ولا يسمح به ويعتبره خروجًا عن واحة الدين وما أمر به القرآن الحكيم .. وليس يبرره أو يشفع فيه أن يكون شاب مسيحى فيما يقال قد اغتصب فتاة مسلمة بإحدى القرى هناك من شهرين .. فجريمة الاغتصاب تلحق بالمغتصب ، وعقوبته مغلظة تصل للمؤبد فى القانون الوضعى وتصل إلى الإعدام فى شريعة السماء .. ولكن جريرته لا تلحق ولا يجوز أن تلحق بسواه ، لا بأحدٍ من ذوى قرباه ، ولا بأحدٍ من ديانته أو طائفته أو ملّته .. بهذا أمر القرآن الحكيم ..

القرآن الحكيم هو الذى علمنا تقديس الروح الإنسانية .. فى المسلم وفى غير المسلم .. فالكرامة وقداسة الروح هى لكل بنى الإنسان .. ففى القرآن المجيد : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء] .. سبحانه وتعالى هو الذى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن] .. سبحانه خلق الإنسان فسواه وعدله ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(*) الأهرام ١٢/ ١/ ٢٠١٠.

[الروم] .. ويقول جل شأنه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠] .. هذه الأرواح خلقها الله ، وأمرها له سبحانه وتعالى ، وروح الواحد هى روح الناس جميعا ، وفى القرآن الحكيم يقول رب العزة : ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] ، فهذه الحياة هبة ربانية مقدسة ، لكل إنسان بل وفى الحيوان .. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث رسول القرآن ﷺ : «**ليس من نفسٍ تُقتل ظلما إلاّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها ، أنه أول من سن القتل** » ،وفى الحديث أيضا : « **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق**» . «وأن قتل النفس التى حرم الله من السبع الموبقات !» .

يعلمنا الإسلام ، الذى قدس الروح الإنسانية ، أن قتل الأبرياء ناهيك بقتلهم غيلة من أشد الموبقات ، جزاؤه جهنم وغضب الله ولعنته ، وما أعده للقاتل من عذاب أليم ، وعلمنا أن المسئولية فى الدنيا وفى الآخرة لا تلحق بأحد إلاّ عن فعله هو لا عن فعل أو عمل غيره ..لا مجال فى شرعة الإسلام لأن يتحمل أحد أو يُحمل بوزر أو خطيئة غيره حتى لو كان من أقرب ذوى قرباه .. ففى القرآن الحكيم : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء] ، وفيه أيضا : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم] .. من مبادئ المسئولية فى شرعة القرآن الحكيم أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، فيقول الحكم العدل : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤ ،

فاطر: ١٨] ، وفى سورة النجم ، قال عز من قائل : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم] .. لا يُمنح الثواب ، ولا يقرر الجزاء ، إلاّ لقاء العمل الشخصى .. خيرًا أو شرًّا .. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة] .. لا يعرف الإسلام عقوبة تصيب بريئا ، ولا شهادة تجامل قريبا ، أو شنآنًا يبرر تحاملًا .. فالشاهد لا يشهد إلاّ بالحق ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥] ، ولا يبرر له شنآن فرد أو جماعة أو قوم أن يحيد فى عمله أو سلوكه أو شهادته عن العدل أو الحق ، فإنصاف الشانئ نفسه واجب ، ولا يسقط شنآنه واجب العدل والتزام الحق معه ، بل يجب على المسلم أن يعدل معه فى كل الأحوال ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] .

فالله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [الصف: ٩] ، وهو سبحانه الذى أمر رسوله بأن يبلغ الناس رسالة ربه بأنه عز وجل ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠] ، وأنه تعالت حكمته : لا يقبل الظلم لأحد ، مسلما كان أو غير مسلم ، ويقول فى كتابه المبين : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر] .

الذين حصدوا حصدا عشوائيا أرواح الإخوة الأقباط الخارجين من الدير وفى موقعين تجاريين فى نجع حمادى ، قد ارتكبوا إثما كبيرا وأتوا

أمرًا إدًّا تشجبه وتدينه شريعة الإسلام ، ويخرج عن مبادئ وأحكام وعقيدة هذا الدين الذى كرم الروح ورعاها فى كل مخلوق حتى فى عالم الطير والحيوان .. وفى الحديث : «**من قتل عصفورًا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول : يارب ، إن فلانا قتلنى عبثا**»!!

إن قتل الأبرياء بغير حق ، لا يتفق والدين ، ولا يصحح خطأ ، ولا يشفى غليلا .. الجانى المتهم باغتيال عرض الطفلة واغتصابها ، لا يزال حيًّا يرزق ، ينتظر حكم القانون .. والذين اغتالوا الأرواح البريئة ، وأدموا الثكالى والأرامل والأطفال الذين يتموا ، لم ينجزوا بجريمتهم النكراء عملا ، ولا أقروا عدلا ، ولا حققوا غاية يقرها العقل والعقلاء .. الشىء الوحيد الذى أنجزوه ، هو بث الاحتقان وإشعال النيران على غير حجة أو منطق !!! من الحمق أن يدفع الأبرياء ثمن جرمٍ لم يرتكبوه ، ومن العماء الضرير أن يُحسب خطأ أو جريمة فردٍ على أبرياء لمحض الاتفاق فى الدين .. تُرى ماذا كان الثائرون فاعلين لو كان الجانى الذى اغتصب الطفلة المسلمة مسلما ؟! هل سيحملون الأسلحة ليعملوا القتل والاغتيال فى المسلمين ، وماذا لو وقع اغتصاب من مسلم على مسيحية ، هل تقبل سنن الحق والعدل ويقبل العقل أن يشرع المسيحيون الأسلحة لقتل المسلمين لأن واحدًا منهم جمح وأخطأ وارتكب إثما كبيرا هو الذى يجب أن يحمل جريرته فى الدنيا والآخرة ؟!!

لا معنى لهذه الجريمة البشعة يمكن أن يقره عقل ، ناهيك بالدين وأحكامه .. فهذا العمل الضرير لا ينطلق إلاَّ من مجرد اختلاف

ديانة الجانى والمجنى عليها ، وهو أمر حدث وسيظل يحدث ما بقى الشر والخطيئة عالقين بالآدمى .. أيا كانت ديانته وديانة المجنى عليها .. وليس من الحق ولا من العدل ولا من العقل أن تحمل طائفة بأسرها ، مسلمة كانت أو مسيحية ، مغبة جانح خرج على شريعة دينه ذاته حين استباح عرضًا لطفلة بغير حق .. خطأ الجانى جنوح شخصى ، لا هو خطأ دينه ولا هو خطأ الطائفة التى ينتمى إليها أو يحسب عليها !

هل معنى اختلاف الدين تبادل العداء على غير حجة أو منطق أو عقل ؟!

والقرآن المجيد هو الذى قال : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود] .. وفى القرآن دلالة على الأصل الواحد لجميع الأديان ، يقول الحق جل وعلا : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة] .. والقرآن الحكيم هو الذى جرت آياته على ما يحفظ العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، فقال تعالت حكمته : ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة] ..أباح الإسلام للمسلم

طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها ويبقى هو على دينه ، لها كل ما للزوجة المسلمة من حقوق سواء بسواء .. ولم يتحدث كتاب عن السيد المسيح عليه السلام بمثل الحديث البليغ الرائع الذى ورد فى القرآن : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] .. والقرآن المجيد هو الذى خص النصارى بإشارة خاصة لما بينهم وبين الإسلام والمسلمين من مودة ورحمة فقال تبارك وتعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة] .

والإسلام منحوت اسمه من لفظ : السلام ، وتحيته هى السلام ، والسلام مهجة وروح الإسلام ، تحية الله للمؤمنين تحية سلام : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب] ، ومستقر الصالحين دار أمن وسلام : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس] .. ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] .. والأمن والأمان هما غاية الإسلام .

من أميز ما فى الإسلام ،أن جميع المبادئ والأحكام التى قررها تصب فى آليات تحقيق الأمن والأمان المجتمعى التى يحرص عليها الإسلام ، لأمان الإنسان كل إنسان على روحه ونفسه وعرضه وماله ، فهذا الأمان هو مهجة وعمود وغاية كل المبادئ والقواعد والأحكام الإسلامية .. وليس أجزى للإنسان ، وأمان مجتمعه ، من دين يطوى الناس جميعا فى أسرة إنسانية واحدة ينعم فيها الكل بالأمان ، ولا تفاضل فيما بين أفرادها إلاّ بالتقوى والعمل الصالح .. وصدق تبارك وتعالى إذ قال فى كتابه المبين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

*****

فى محبة المسيح (*)

كنت فى الرابعة من عمرى ، أى من نحو سبعة وستين عامًا ، حين ألحقنى أبى مع أختى الكبرى بمدرسة الراهبات Notre dam des APotre بشبين الكوم ، ثم ألحق فى العام التالى شقيقى المرحوم فاروق ثم شريف ، ومن بعدهما الأختين الصغيرتين الباقيتين من عنقود الأولاد آنذاك .. كان النظام الذى التزم به أبى عطيه عبده ، وهو مسلم شديد الالتزام بالإسلام ، ومتنور يفهم الإخاء بين الأديان .. أن تستمر البنات بناته فى مدرسة الراهبات حتى الحصول على شهادتها ، بينما الصبيان يمكثون لعام واحد ينتقلون بعده إلى المدارس العربية وقد كان .. لا زلت أذكر أن هذا الإلحاق بمدرسة الراهبات ورئيستها الـ Me're وأعضاء التدريس من الأخوات الراهبات Soeur ، كان خاليا من أى حساسيات على الجانبين ، فلا حذرنا أبى أو أمى من أى تهاويم ، ولا استغلت المير والسيرات (الأم والأخوات) قيامهن بالتعليم لتلقين ما لا يتفق مع الإسلام .

ولا زلت أذكر أن أطباء الأسرة ، على كل التخصصات ، فى ذلك الوقت ، كان حافلا بأسماء مسيحية .. الدكتور العجوز جورجى ياتريدس خبير الباطنة (يونانى الأصل) ، والدكتور نقولا تادرس إلى جانب الدكتور عمر سعد فى طب الأسنان ، والدكتور ناشد عبد

(*) الأهرام ٥/ ٤/ ٢٠١٠.

المسيح والد الزميل صديق العمر أسعد ، وبنات الدكتور ناشد الثلاثة الصديقات الحميمات لأخواتنا الثلاثة ، والدكتور رياض سركيس ، كل هؤلاء وبلا أى تفرقة إلى جوار الدكاترة محمد مبارك ومحمد أبو باشا .. لم نعرف تفرقة بين الأطباء مرجعها إلى الانتماء الدينى أو الطائفى ، وكذلك الصيدليات ، وبين المدرسين والأصدقاء .

وقتها لم أتوقف لاستقطار الأسباب ، فلم يكن فى ذلك أى نبوّ عن مألوف يدعو إلى التساؤل ، ولما شَبَبْنا عن الطوق ، عرفنا مما قرأناه ، ثم درسناه فيما بعد وتأملنا فيه ، أن محبة السيد المسيح والمسيحيين متجذرة فى صفحات وجدان المسلمين فى بر مصر ، وأن هذا التجذر مستمد من الإسلام ذاته .. فقد دلنا مما كنا نتدارسه من الصبا ، أن احترام الأديان السماوية جزء لا يتجزأ من الإسلام ، وأن هذا الاحترام للأديان فرع على شجرة أصيلة أقرها القرآن المجيد الذى جعل الإيمان بكل الرسالات أصلا من الأصول الإسلامية .. ففى القرآن الحكيم : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة] .

وحين توسعنا فى قراءة مدونات الأديان ، لم نجد كتابا من الكتب السماوية يتحدث بمثل الحديث الرائع الذى تحدث به القرآن المجيد عن زكريا ويحيى ومريم والمسيح عليهم السلام .. نقرأ فى المصحف ، ونسمع فى التلاوات فى الإذاعة وفى المساجد وفى التعازى ، من آيات القرآن فى هؤلاء الأنبياء الأحياء .. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ

أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧] .. ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ .. [النساء: ١٧١] .. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] ..

وعرفنا مما عَرَّفَنا القرآن المجيد ، المنزلة الرفيعة والتأييد الإلهى لكل من السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام ، وتابعنا هذه الرعاية الإلهية منذ الحمل فيه حتى رفعه الله بآيات معجزات هائلات : حمل مريم فيه بغير أب ، وكلامه فى المهد ، وجعله الماء خمرًا فى عرس «قانا الجليل» ، وتصويره الطين على هيئة طير ونفخه فيه فتكون طيرًا بإذن الله ، وابراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى بإذن الله ، وإخباره بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك

أحس عيسى منهم الكفر ، ومكروا لصلبه وقتله ومكر الله والله خير الماكرين. ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

وعن جذور هذا الإخاء ، وهذه المحبة فى بر مصر . بين المسلمين والمسيحيين بخلاف اليهود الذين أنكروا وتنمروا وشنفوا للسيد المسيح ثم لمحمد المصطفى رسول الإسلام هذه الجذور قد أخبر بها القرآن الحكيم ، وتلقيناها عنه من الصغر ، فجعلنا نقرأ ونتلو ونسمع قول الحق ﷻ : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة] .

درجنا إذن على محبة السيد المسيح والمسيحيين ، وتعلمنا على مر الزمن ، ومراجعة ما ورد فى الأناجيل المسيحية ، وفى القرآن الحكيم أنه لا عداوة بين الإسلام والمسيحية ، فالمسيحية قوامها المحبة والسلام ، والإسلام يحترم كافة الديانات وينبذ كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح .. يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .. وفى الحديث : «**كلكم لآدم .. وآدم من تراب .. إن أكرمكم عند**

الله أتقاكم» . يتسامح الناس ، ويتسامح المتدينون ، حين يدركون أن أصلهم واحد ، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة .. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم ، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعًا ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة .. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١] .. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٨] .. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد ، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية ، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والاسماح .. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى .. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم] .

لم يحضنا الإسلام فى الإيمان به أو الدعوة إليه على مخاصمة الأديان أو أهلها ، ورأينا رسول القرآن صلى الله عليه وسلم يتزوج ويبنى بصفية اليهودية وبماريا القبطية المصرية أم ولده إبراهيم الذى رحل عن الدنيا طفلا .. وقرأنا ونقرأ ونتعلم من القرآن أن طعام أهل الكتاب والزواج من الكتابيات حل للمسلم ، لا تحريم فيه ولا تثريب عليه ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥] .

من يستقطر التقاليد المصرية يجد هذه المحبة متجذرة فى أصولنا المصرية إسلامية كانت أو مسيحية ، ويلحظ أنه فضلا عن توفير

القرآن للأنبياء كافة ، وللسيد المسيح عليه السلام خاصة ، فإنه قد ترسخ فى نفوس المسلم دلالة تسمية سور كاملة فى القرآن الحكيم بأسماء الأنبياء السابقين وأسرهم ، من مثل سور : نوح ، وإبراهيم ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، ومريم ، وآل عمران ، ولذلك فقد شببنا لا نفرق بين المزارات الإسلامية والمزارات المسيحية ، وظلت السياحة المصرية حاضنة رءومة لهذه المحبة .. تراها فى المزارات المسيحية التى صارت أيضا مزارات للمسلمين فى مصر .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة بالدقهلية، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسيوط وغيرها ، مزارات مسيحية يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون ..

إن ما أتبادله الآن من تهانى مع الأحباب والإخوة والأصدقاء والزملاء والجيران المسيحيين ، ليس من قبيل أداء الواجب ، وإنما هو تعبير صادق صادر من الأعماق عن هذه الأواصر والوشائج الحميمة ، ونابع مما نحمله فى صفحات وجداننا من «محبة للمسيح» .

*****

مأتم فى قلبى !! (*)

منذ صدر هذا الأسبوع ، أعطيت ظهرى للاحتفالات الجارية بالعام الميلادى الجديد ، وأقمت فى قلبى مأتمًا للإخوة والأخوات المسيحيين ، الذين حصدت أيادى الغدر والخسة والوضاعة أرواحهم ، وأراقت دماءهم الطاهرة وهم خارجون من دار العبادة ، بعد أن أدّوا صلواتهم ، وتبادلوا التهانى وتهيأوا لاستقبال العام الجديد ، فتلقفهم انفجار ضرير غادر ، كفيف خسيس ، لا يرعى الله ولا يلتزم بدين ، ولا يحترم عهدًا ولا شرعًا ، ولا يقيم وزنًا للأرواح التى خلقها الله ، ومصيرها إلى بارئها ، فاستحل حصدها حصدًا ليحول احتفال المصريين جميعا بعام جديد ، إلى مأتم أصاب مصر كلها فى الصميم .. وأحال الضحكات والبسمات إلى بكاء ودموع ونحيب .. قتل غدرًا بغير حق أرواحًا بريئة ، وَيتَّم أطفالًا ، اختطف منهم ذويهم ، وثكل أمهاتٍ اختطف فلذات أكبادهن ، ورمّل زوجات وأزواجًا أحال حيواتهم إلى هجير مقفر حزين !!

لا أحسب بيتًا مصريا ، مسيحيًّا أو مسلمًا ، إلاَّ وفجع بهذه المأساة التى لم يراع مدبروها دينًا ولا ملة ولا عهدًا ولا ضميرًا ولا خلقًا .. ولا أقاموا وزنًا لتوابع هذه الكارثة على مصر بأسرها .. شعبها وأمنها وحاضرها ومستقبلها .. ولا عناهم الخراب الذى أصاب البيوت ، ولا

(*) الأهرام ٦/ ١/ ٢٠١١.

الحزن الذى سكن القلوب ، وقصفوا بهذا الغدر الخسيس أعواد الحياة ، وأعمتهم أغراض حقيرة كفيفة ، عادوا بها الإنسانية كلها ، وخلعوا الولاء لله ﷻ !!

أشنع ما فى القتل العشوائى الوضيع ، أنه لا يفرق ولا يميز ، ويزهق أرواحًا بريئة لا ذنب لها ولا جريرة ، ويرمّل زوجات ويثكل أمهات ويتّم أطفالا ، ويجرى بغير منطق ولا حجة ، ولا يدفعه إلاّ رغبات عبثية ضريرة تلتحف بذرائع مغلوطة لضرب أمان ومصير الوطن وإشعال النيران فى ربوعه !!

أكتب هذه السطور مساء الأحد ، ولست أدرى ماذا سوف تتدافع إليه ردود الأفعال ، ولعلّى أتوقع ردود أفعال ربما أخطأت اختيار الطريق فى اتجاه بوصلتها ، ولكن هذا فى نظرى مفهوم ، ويجب أن تتسع له الحكمة والصدور ، وأن تدرك أن وقع الفجيعة أمرّ وأضنى وأوجع من أن تحتمله النفوس المكلومة ، وأشد من أن تتسع الرؤية الصافية لردود أفعاله . أخشى ما أخشاه أن يُقابل رد الفعل برد فعل ، وأن تدخل مصر فى سلسلة من ردود أفعال تأخذنا بعيدًا إلى حيث يريد المتآمرون بالخارج أم بالداخل على مصر ، الراغبون فى إشعال الحرائق والفتن فى ربوعها وبين شعبها !!

ظنى أن الموضوع صار يجاوز الحديث عن الوحدة الوطنية ، فما نواجهه بات تدميرًا صارخًا ومباشرًا يصيب مصر بأسرها ، مسيحييها ومسلميها ، وينسف قيمها ومثلها وأمنها ونظامها ومصالحها ومصيرها ، ويهدد كيان الوطن تهديدًا خطيرًا لا يخدم إلاّ أعداءه ، فى الخارج كانوا

أو فى الداخل .. الفاعلون المدبرون لا يمكن أن يكونوا منتمين إلى أى دين ، دينهم هو الشيطان إن جاز التعبير ، ومن المحال أن يقدم على هذا العبث الشنيع إلاَّ عدو طُوى على كراهة لمصر وشعبها ، وعلى حقد دفين ناشب فى مخزون نفسه .. يروم به القضاء على كل شىء طيب فى أرض الكنانة ، ويبتغى ضربها فى صميم أمنها وسلامها ، ويفسد إفسادًا مخططا متعمدًا ما بين بنيها .. ليزرع بينهم العداء والبغضاء بدل المحبة والوئام .. لم تعد تمر فترة ، إلاّ ويوجع قلب مصر بحادثٍ مروع يضربها فى السويداء ، ولا يمكن أن يصدر إلاَّ عن كُفرٍ بواح ، وعن ضمير ميت وحقد دفين وتخطيط خبيث .. وضع نصب عينيه هدفًا يريد به تمزيق مصر وإشعال الحرائق فى ربوعها وخلخلة وزعزعة أمانها !!

هذه الفواجع العدوانية ، واستسهال سفك الدماء ، ضَرْبٌ من الجاهلية الحمقاء مهما كانت أهدافها ومآربها .. من المحال أن يكون فى قلوب الفاعلين مصريين كانوا أم متآمرين من الخارج ذرة من الانتماء إلى الله ﷻ ، والولاء له .. ومن المحال أيضًا أن يدين هؤلاء الفاعلون المدبرون بأى دين .. فالدين اعتزاز بالانتماء إلى الله ، والإيمان برسله ورسالاته ، والاحترام العميق لخلقه .. المتدين السوى لديه شعور عميق بالنبل واحترام الإنسانية ، وهو أبعد ما يكون عن الغرور والصلف والغطرسة والاستعلاء على الخلق وتجاهل الكون وازدراء الوجود والإنسانية .. الدين الحق أى دين هو فى لبه وجوهره رفض تام لهوان الروح والعقل ، ومقاومة كاملة شاملة للتعفن الداخلى المدفوع بالحقد والبغض والعماء .. الدين هو ولاء لروح الله واحترام لخلقه بإخلاص وشجاعة وإصرار على هذا الولاء وشعور دائم بهذا الولاء .

ليس من الولاء لله ﷻ ، أو الانتماء للأديان ، حصد الأرواح التى خلقها الله وسفك دمائها عدوانا وإثما وافتئاتًا .. إن من قتل نفسًا بغير حق ، كأنما قتل الناس جميعا .. إن الأديان كافة تقدس الروح تقديسها لخالقها وبارئها .. وفى الإسلام روح الإنسان ، مهما كانت ديانته أو عرقه ، هى روح الناس جميعا .. هى الحياة كلها .. وإزهاقها هو اعتداء غاشم ضرير على الحياة الإنسانية التى أوجدها الله ولا موجد ولا منهى لها سواه .. قتل النفس التى حرم الله قتلها من السبع الموبقات ، وفى القرآن المجيد أن جزاء القاتل جهنم خالدًا فيها وعليه لعنة الله مع ما أعد له من عذابٍ عظيم .. وفى حديث رسول القرآن ﷺ : «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفسٍ بغير حق**» .

هذا الإجرام الذى يجترئ على سفك الدماء وحصد الأرواح ، ولا يرعوى بدين أو خلق أو ضمير ، يجب مواجهته بالحزم وملاحقته وحصاره ووأده وضربه فى كل فج ! هذا الواجب واجب على الكافة فى أرض مصر .. حاكمين ومحكومين .. هو أوسع فى مداه ولوازمه من أن ننفض أيدينا منه اتكالا على الحكومة .. هو واجب المسلمين كافة قبل أن يكون واجب المسيحيين ..إن من حق القبطى على كل مسلم فى مصر أن يكون له درعًا يقيه من أى جموح أو انفلات مريض أو مجنون ، أو تآمر مدبر مدفوع .. إن ما تجرى به وعليه هذه الفواجع المدبرة الخسيسة ، يضرب فى قلب الجماعة الوطنية ويبتغى إشعال حريق لا ينطفئ بين أبناء الوطن يأتى على الأخضر واليابس !

*****

ماذا أقول لكم ؟!

إننى أشعر بالخزى والعار الذى لحق بنا من جراء هذه الفاجعة المؤسفة الدامية التى أسالت الدماء الطيبة فى يوم عيدها وقتلت بهجة الإخوة ليلة عيدهم ، وأحالت أفراحهم إلى أحزان ، وضحكاتهم إلى نحيب وبكاء !!

بماذا أواسى أسر القتلى ، وبماذا أواسى المصريين ، وكيف تجدى المواساة ، فى تخفيف لواعج هذه المأساة التى خفق لها قلب مصر ؟!

إن مصر كلها تبكى هؤلاء الراحلين الذين حصدت أرواحهم غدرًا وخسّة ، ولكن بكاءنا لن يعيد الحياة إلى الأرواح التى أزهقت ، ولن يرد البهجة التى غربت وأقفرت من البيوت التى كانت عامرة ، ولن يبث الأمان فى القلوب التى فجعت .. إن ما حدث أكبر من البكاء ومن العزاء والمواساة .. هو اعتداء غشوم على مصر كلها وتدمير لأعواد الحياة فيها !!

هل أعود لأقيم فى المأتم الذى نصبته فى قلبى حدادًا على هذه الأرواح البريئة التى أزهقت إثمًا وعدوانًا بغير حق ؟! ولكن ماذا بعد ؟!

ستجف الدموع وإن طالت ، وسيكفكف الصبر ويخفف لواعج القلوب المكلومة ، ولكن لا سبيل لتجفيف إجرام المتربصين بنا ومواجهة هذه المؤامرات الدنيئة على أمننا ومصيرنا ، إلاّ بأن ننتفض ونهب على قلب واحد ..لنستجمع عزمنا وقوانا ، وعقولنا وأفهامنا ، لتئد هذه الفتن التى تضرب فى قلب مصر ، فهل نحن فاعلون ؟!

كتب وإصدارات المؤلف

(١) أوراق المركـز المصرى للأبحاث والإعـلام ط ١٩٩٧ .

(٢) من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ١٩٩٧ .

(٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ١٩٩٨ .

(٤) بشاير المركـز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٠ .

(٥) باسمك اللهم المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٠ .

(٦) بسم الله المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٠ .

(٧) نواب القروض المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠١.

(٨) يارب المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠١.

(٩) قضية النقابيين المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠١.

(١٠) أبو ذر الغفارى روز اليوسف ، هيئة الكتاب ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٥.

(١١) قضية الجمارك الكبرى المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٢.

(١٢) مواقف ومشاهد إسلامية دار الهلال ط ٢٠٠٢.

(١٣) ماذا أقول لكم دار الشروق ط أولى ٢٠٠٣.

(١٤) عالمية الإسلام مركز الأهرام للترجمة والنشر ط ١ ، ط ٢ ٢٠٠٣ .

(١٥) إبحار فى هموم الوطن والحياة دار الشروق ط ٢٠٠٤ .

(١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال دار الشروق ط ٢٠٠٤ .

(١٧) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل المجلد الأول روز اليوسف ط ٢٠٠٣ .

(١٨) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل المجلد الثانى روز اليوسف ط ٢٠٠٣ .

(١٩) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل المجلد الثالث روز اليوسف ط ٢٠٠٤ .

(٢٠) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل المجلد الرابع روز اليوسف ط ٢٠٠٥ .

(٢١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل المجلد الخامس المكتب المصرى الحديث ط ٢٠٠٦ .

(٢٢) الإنسان والكون والحياة كتاب الهلال أكتوبر ٢٠٠٥ .

(٢٣) تأملات غائرة دار الشروق ط ٢٠٠٦ .

(٢٤) الأديان والزمن والناس كتاب الهلال سبتمبر ٢٠٠٦

(٢٥) شجون وطنية المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٦ .

(٢٦) الهجرة إلى الوطن كتاب الهلال نوفمبر ٢٠٠٧ .

(٢٧) رسالة المحاماة دار الشروق سبتمبر ٢٠٠٨ .

(٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية المكتب المصرى الحديث سبتمبر ٢٠٠٨

(٢٩) فى رياض الفكر كتاب الهلال ٢٠٠٨ .

(٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .

(٣١) من تراب الطريق الكتاب الأول المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .

(٣٢) من حصاد المحاماة المجلد الأول المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٣) من حصاد المحاماة المجلد الثانى المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٤) من حصاد المحاماة المجلد الثالث المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٥) من حصاد المحاماة المجلد الرابع المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٦) من حصاد المحاماة المجلد الخامس المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٧) من حصاد المحاماة المجلد السادس المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٨) من حصاد المحاماة المجلد السابع المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٣٩) من حصاد المحاماة المجلد الثامن المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٤٠) من حصاد المحاماة المجلد التاسع المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩

(٤١) من حصاد المحاماة المجلد العاشر المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

(٤٢) من حصاد المحاماة المجلد الحادى عشر المكتب المصرى الحديث . ٢٠١٠

(٤٣) من حصاد المحاماة المجلد الثانى عشر المكتب المصرى الحديث . ٢٠١٠

(٤٤) من حصاد المحاماة المجلد الثالث عشر المكتب المصرى الحديث . تحت الطبع

(٤٥) دولة الأيام ! كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩

(٤٦) من تراب الطريق الكتاب الثانى المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩

(٤٧) من تراب الطريق الكتاب الثالث المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠

(٤٨) من تراب الطريق الكتاب الرابع المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠

(٤٩) الأمن والأمان : قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩

(٥٠) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة العقل للفيلسوف جورج سانتايانا كتاب الهلال نوفمبر ٢٠٠٩

(٥١) فى دروب الفكر والحياة . مطبوعات الهلال نوفمبر ٢٠١٠

(٥٢) من همس المناجاة وحديث الخاطر . المكتب المصرى الحديث نوفمبر ٢٠١٠

(٥٣) الواقع أو الحقيقة ترجمة عن كتاب طبيعة العالم المادى للسير آرثر إدينجتون ومقالات أخرى للمترجم كتاب الهلال ديسمبر ٢٠١٠ .

(٥٤) من وحى الحج مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٥٥) فى صحبة محمد عبد الله محمد تحت الطبع .

(٥٦) عبقرية إنكار الذات أبو عبيدة بن الجراح تحت الطبع .

*****

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
الإسلام واحترام كافة الرسالات	٥
الأديان .. الهداية ، أم الأمجاد ؟!	١١
الأديان والغير	١٥
الأديان وشرنقة الإعتياد	١٧
الأديان ، والغير .. من الذى يعادى السامية ؟!	١٩
الجماعة الوطنية : إلى أين ؟	٢٢
الجماعة الوطنية: براءة الأديان من أسباب الإحتقان !	٣١
الجماعة الوطنية : الأفق الآدمى ، بين الضيق والاتساع !	٤٧
الجماعة الوطنية : وسحابة الحادث الأخير !	٥١
الجماعة الوطنية : وآلية الرعاية الواجبة !	٥٥
اللى الأوطان بتجمعهم عمر الأديان ما تفرقهم !	٦١
الوحدة الوطنية أقوى من الأعاصير	٦٤
رعاية شجرة الوحدة الوطنية	٧٠
كيف نغسل أيدينا من هموم الاحتقان ؟!	٧٣

الموضوع	الصفحة

الوحدة الوطنية من تانى ! ٧٦
قدسية الروح فى الإسلام ليس من الإسلام قتل الأبرياء بغير حق ! ٨٢
فى محبة المسيح ٨٩
مأتم فى قلبى !! ٩٥
ماذا أقول لكم ؟! ٩٩
كتب وإصدارات المؤلف ١٠٠
فهرس الكتاب ١٠٣

*****

رقـــم الايـــــداع ٢٠٠٨ / ١٩٠٤٤
الترقيم الدولي I.S.B.N 977-209-177-1